علم الاجتماع ودراسة المجتمع عند بيير بورديو

د. أمنة رمضان على العريفي (*)

مقدمة:

لقد شكل المجتمع الإنساني، وما ينطوي عليه من ظواهر اجتماعية وثقافية، بؤرة الاهتمام الأساسية لدى بورديو في العديد من كتاباته السوسيولوجية، حيث شغلت عملية الكشف عن الخواص البنائية للعالم الاجتماعي، والممارسات السلوكية للأفراد الذين يقطنون هذا العالم، حيزاً في نظريته عن الممارسة، والتي حاول من خلالها أن يقدم تحليلاً نظرياً للعلم والمجتمع معاً، ينطلق من سوسيولوجيا انعكاسية في دراسة الواقع الاجتماعي.

إن علماً للمجتمع مفهوماً على هذا النحو بوصفه نسقاً ذا بعدين، لابد له بالضرورة أن ينتج قراءة مزدوجة: القراءة الأولى، تعالج المجتمع على منوال فيزياء اجتماعية، أي من حيث هو بنية موضوعية يتم الإمساك بها من الخارج، ويمكن أن نلاحظ تمفصلاتها على المستوى المادي. أما القراءة الثانية، فهي وجهة النظر الذاتية التي تؤكد على أن الواقع الاجتماعي إنجاز عارض ومستمر في طرف ممثلين اجتماعيين أكفاء، يعملون باستمرار على بناء عالمهم الاجتماعي في خلال الممارسات المنظمة في الحياة اليومية.

وبناء على هذه القراءة المزدوجة حاول بورديو أن يقدم تعريفاً واضحاً لموضوع علم الاجتماع، من خلال التفرقة التي وضعها بين العلم والفلسفة من ناحية، وتحليلاته النظرية التي قدمها من واقع مجتمعات إنسانية مغايرة عايشها

(*) **د. أمنة رمضان على العريفي:** أستاذ مساعد بقسم الاجتماع- كلية الآداب- جامعة الزاوية- ليبيا.

(ISSN : 2536 - 9555)

أثناء كتاباته السوسيولوجية من ناحية أخرى، مستخدماً أسلوباً استقرائياً في التحليل، بحيث بدأ بتحليل مجتمعه الأكاديمي المصغر (الجامعي)، وتحول تدريجياً إلى تحليل، مجتمعات كبرى كالمجتمع الشيوعي الماركسي والمجتمع الرأسمالي الجديد، ليصل بذلك إلى تصورات نظرية استطاعت أن تفسر الواقع الاجتماعي لمختلف أنماط هذه المجتمعات.

إن هذه الورقة البحثية تهتم بتوضيح المحاور الآتية:

أولاً: الفلسفة وعلم الاجتماع في نظر بييربورديو.

ثانياً: موضوع علم الاجتماع عند بييربورديو.

ثالثاً: تصورات بييربورديو عن المجتمعات الإنسانية.

(1) تصوره عن المجتمع الأكاديمي المصغر (الجامعة).

(2) تصوره عن المجتمع الشيوعي (الماركسية المزيفة).

(3) تصوره عن المجتمع الرأسمالي الجديد (النيوليبرالية).

أولاً: الفلسفة وعلم الاجتماع في نظر بييربورديو.

إن المقاربة المنهجية المقدمة من قبل بيير بورديو بين علم الاجتماع والفلسفة، والتفرقة بينهما تجد خلفياتها العلمية في المدرسة الأبستمولوجية الفرنسية، الجيل الناقد للوجودية والظواهرية، جيل: (التوسير وبارط وفوكو ودلوز ودريدرا)، وأبحاث كلاً من: (باشلار وكويري وكفاي وكونغليم)، بالإضافة إلى علماء الاجتماع: (كارل ماركس وماكس فيبر وأميل دوركايم)، والأنثروبولوجي ليفي ستراوس وغيرهم. وهي خلفية ساعدته على طرح جديد ليس فقط لعلاقة الفلسفة

بـالعلوم الاجتماعيـة، وإنمـا مكنتـه مـن تقـديم منظـور جديـد لكثيـر مـن المسـائل الفلسفية والاجتماعية. ففي بحث عن الفلسفة يقول بورديو: "قد دام احتقار العلوم الاجتماعية بين طلبة الفلسفة في المدرسة العليا –الذين كانوا يمثلون (النخبة)، ومن ثم النموذج السائد– حتى الستينيات على الأقل، في ذلك الوقت كانت السوسيولوجيا الوحيدة متواضعة وإمبيريقية، دون أن يكون وراءها أي إلهام نظري أو إمبيريقي حقاً، ودعمت هذا الاعتقاد لدى فلاسفة المدرسة العليا حقيقة أن سوسيولوجيي العشرينيات والثلاثينيات، جان ستوتسيل Jean stoetzel، أو حتى جـورج فريـدمان Geroges Friedmann، الـذي كتـب كتابـاً بائسـاً عـن ليبنيتزوسبينوزا Spinoza، قد صدموهم بكونهم نتاجات لمهمة سلبية... وعندما أصبحت البنيوية بالغة الأهمية، فرض علم الاجتماع نفسه كمذهب محترم، خصوصاً عقب كتابات ليفي ستراوس Levi Strauss الذي عمد عمله باسم الأنثروبولوجيا بدلاً من الإثنولوجيا، جامعاً بذلك بين المعنى الأنجلو سكسوني والمعنى الفلسفي الألماني القديم تقريباً, في الوقت نفسه الذي كان فيه فوكو يترجم أنثروبولوجيا كانط... كما كان من الضروري في ذلك الوقت طرح التساؤل حول مكانة الفيلسوف من أجل القيام بتحول حقيقي إلى العلم، وعلى الرغم من أنني حاولت في عملي إعمال طريقة التفكير البنيوية أو العلائقية في السوسيولوجيا، إلا أنني قاومت الأشكال التي لا تعدو كونها أشكالاً رائجة من البنيوية، كما كنت أقل ميلاً إلى إظهار أي تساهل إزاء النقل الميكانيكي لسوسير أو ياكوبسون Jakobson إلى الأنثروبولوجيا أو السيميولوجيا، والذي كان ممارسة شائعة في الستينيات"[1].

إن هذا الاقتباس يضعنا أمام تقسيم واضح عند عرضنا لفكرة الفلسفة وعلم الاجتماع في نظر بورديو, يتخذ محاوراً رئيسية كالتالي:

(ISSN : 2536 - 9555)

(1) تجربة بورديو مع الفلسفة:

يمكننا أن نلتمس إنتماء بورديو إلى الجيل الذي أتى لكي يحدث القطيعة مع الوجودية السارترية، ويتحول إلى الابستمولوجيا وفلسفة المصطلح والعلوم الإنسانية، فكما نعلم ساد على الساحة الفرنسية طيلة الأربعين عاماً الماضية، تيارات فلسفية متنوعة أهمها، التيار الوجودي ويمثله (سارتر ومارلوبونتي)، والتيار الابستمولوجي ويمثله (غاستون باشلاو وأليكسندركويري وجورج كانغليم)، فالأول كان يبحث عن المعنى، معنى الظواهر والوجود، وكان منغمساً في السياسة، حيث ازدهرت في تلك الفترة فلسفة الذات والحرية والالتزام والثورة، بينما يبحث الاتجاه الثاني على أهمية المصطلح والمفهوم والعقلانية وفلسفة العلوم، أي ما يسمى بشكل عام بالمنهجية الابستمولوجية.

كان هذا التيار يبدو ظاهرياً بعيداً عن السياسة وهمومها بالمعنى المباشر للكلمة، ولكنه في الواقع كان أكثر تأثيراً على العلوم الإنسانية، لذا كان بورديو كميشال فوكو، قد أحس بالحاجة للانخراط في المنهجية الابستمولوجية واعتناق الروحية العلمية الجديدة، وذلك بعد أن سقط في نظره الخطاب الفلسفي العمومي والتقليدي السائد في السوربون، وحل محله شيء آخر هو العلوم الإنسانية، إلا ان الفرق بينه وبين فوكو وغيره من كبار المثقفين، هو أنه لم تكن لديه خلفية أسرية بورجوازية، لأنه ببساطة ولد في أسرة متواضعة وبيئة ريفية، لذا نجده لم يتحمس كثيراً للموضوعات التي كان يطرحها بلانسو في مجله (نقد Critique)، ولكن كبقية جيله درس الفلسفة، التي كانت من وجهة نظره حافزاً للإمعان في قراءة الواقع الوجودي للإنسان عبر صيرورته الدائمة وتحولاته المتفاقمة، ولو ألقينا نظرة عابرة على كتاب بورديو: تباشير التحليل الذاتي للذات، لوجدناه وهو يتحدث عن فترة شبابه، تلك الفترة التي كانت الفلسفة هي أم العلوم

فـي بـاريس، وتسـيطر علـى السـوربون وكـل الأجـواء الثقافيـة الفرنسـية، ينـاقش اللامفكر فيـه، فمن لـم يكـن فيلسوفاً فـي تلـك الفترة لـم يكـن يعتبـر مثقفاً بـالمعنى الحقيقي والكامل للكلمة، ولعل هذا يفسر دراسة بورديو لفلسفة مارتن هيدجر عن الوجود والزمان[2].

ففي كتابه: الأنطولوجيا السياسية عند مارتن هيدجر The political Ontology of Martin Heidegger عام 1981م، يحلل لنا بورديو فلسفة هيـدجر التـي كانـت تسـيطر علـى الفلسـفة الفرنسـية فـي قـراءة مُزدوجـة فلسـفية وسياسية، وموضحاً كيف أن فلسفة هيدجر قد تكون مجرد صيغة تسام أو إعلاء فلسفي للمبادئ السياسية أو الأخلاقية التي حددت مساندة الفيلسوف للنازية، والتي بدأت واضحة في خطبته –أي هيدجر– التي ألقاها في 1933م المعنونة (الدفاع الذاتي Selbstbehauptung للجامعة)، والتي كانت من البداية إلى النهاية ذو التباس نادر الوجود، لأنه تمكن من أن يخضع المقولات الوجودية والأنطولوجية للخطة التاريخية؛ بحيث تخلق وهماً بأن مقاصدها الفلسفية قابلة للتطبيق على الوضع السياسي على نحو قبلي، كما هو الحال حين يقيم علاقة بين حرية البحث وقسر الدولة، ويجعل خدمة العمل والخدمة العسكرية تتوافقان مع خدمة المعرفة، حتى أن المستمع في نهاية المحاضرة لا يعرف ما إذا كان عليه أن يتجه لقراءة كتاب ديلس Diels عن الفلاسفة (ما قبل السقراطيين)، أو أن عليه أن يلتحق بكتائب النازية الهتلرية[3].

ويشير بورديو إلى أنه لا يمكن أن نحكم ببساطة على هذه الخطبة من وجهة نظر واحدة، سواءٌ كانت سياسية محضة أو فلسفية محضة، كما إنه لمن الخطأ أن نعين موضع هيدجر في المجال السياسي البحت مُعتمدين على قرابة أفكاره بأفكار كتاب المقالات أمثال شبنجلر أو يونجر، أو أن نعين موقعه في

(ISSN : 2536 - 9555)

الساحة الفلسفية باسم معارضته للكانطيين الجدد، لأن أشد سمات فكره خصوصية لكي نفهمها بدقة، يتعين علينا أن نعي منهجياً الروابط المتبادلة التي تقيمها أنطولوجيا هيدجر السياسية في الممارسة، لأنها تخلق موقفاً سياسياً، غير أنها تعطيه تعبيراً فلسفياً محضاً.

ويواصل بورديو تحليله للأنطولوجيا السياسية عند هيدجر من خلال ربطها بالسياق الاجتماعي والفكري والسياسي الذي شكل فكر هيدجر، بداية من أزمة ألمانيا وأزمة النظام الجامعي الألماني، وأخيراً الكساد الكبير الذي ساد عام 1929م، مما انعكس ذلك على ظهور صفوة من المثقفين عرفت عامة "بثقافة فيمار"، التي انبثقت في فيينا نهاية القرن، ولازمتها فكرة مساوئ الحضارة التكنولوجية المفتونة بالحرب والموت، وساد السياق الجامعي، مزاج أيديولوجي أتسم بإضفاء الطابع الشعبي، وبدرجات متفاوتة من لطف التعبير والتبرير الفعلي، فنجد تأثر فكر شبنجلر والذي ارتبط بحركة الشباب الذين دعو للعودة إلى أشكال من الحياة أبسط وأقرب إلى الطبيعة بدلاً من التجارب التقنية، بعيداً عن ضغط الوقائع التي لا روح فيها والمناخ الفظ البارد للتنظيم التقني، والاتجاه نحو التأمل المحض، لقد كان لهذا السياق وقعه الواضح على مؤلفات هيدجر، خصوصاً بعد ظهور الأزمة الجامعية في ألمانيا عقب تدهور الوضع الاقتصادي والاجتماعي للأساتذة بسبب التضخم، وظهور طبقة (البروليتاريين الأكاديميين)[*] والتصريحات المعادية لرأسمالية الدولة، والتحلل Decomposition في المجتمع الصناعي، على حد تعبير فريتز رينجر Fritz Ringer الذي ناهض استخدام الميكنة في المجتمع الصناعي.

[*] هؤلاء الذين حصلوا على شهادة الدكتوراه واضطروا إلى أن يدرسوا لمن هم دون مستوى التعليم الجامعي، بسبب ندرة الوظائف الأكاديمية.

وفي هذا الصدد يشير بورديو إلى "أن العديد من الخطابات الفلسفية, وغيرها من الخطابات التي كتبها وتبناها مجموعة من الأكاديميين الذين كانوا ناطقين بلسان روح العصر Zeitgeist ساعدت على تشكيل البنية الفكرية لهيدجر والتي تبناها في رؤيته عن العالم الاجتماعي" [4]. حيث رفض هيدجر النظرة الميكانيكية إلى العالم باعتبارها شيئاً غريباً، أخر بالنسبة إلينا، ورفض ثنائية الطبيعة الغريبة عن الروح، كما رفض مُثل العقل النظري، المختزل في نزعة عقلانية حسابية غرضية، لأنه في نظره حينما نرى العالم بطريقة نظرية نكون مُسبقاً قد فرضنا عليه الاعتام، فالوجود الإنساني المتكشف في الممارسة عند هيدجر مختلفاً عن الوجود العادي للأشياء في العالم حولنا، ويكمن الفرق في أن الأشياء متعينة ولها صفاتها المتميزة، فهذا هو نمط وجودها، أما نمط الوجود الإنساني، فإن ما يبديه ليس وجود شيء ذي صفات، بل هو مدى يتالف من طرق ممكنة للوجود، والأنا الفردية تتعين في صيروراتها بإسقاط نفسها فيما تختاره من هذه الممكنات[5].

وفي فلسفة البراكسيس عند هيدجر يكون أوَّل التقاء الموضوعات بالأشياء في العالم متمثلاً في أنها مفردات استفادة عملية قابلة للاستخدام والتشغيل، وما لم نفعل ذلك لن تكون الموضوعات ماثلة أمامنا كموضوعات من بين أعداد لا متناهية من عناصر العالم، وما لم تتم إضاءة الأشياء بفضل الدور الذي تلعبه داخل شواغلنا وهمومنا العملية، لن يظهر أو يبرز أمامنا ما يمكن أن نفرده لأنظارنا، أي نخضعه لمعرفة الإدراك الحسي.

أما فيما يتعلق بفكرته عن الوعي الاستبطاني، فالتفكير في الذات عند هيدجر ممكن ولكنه ليس مسألة ذات عارفة ترى ما بداخلها، أي إن وجود الذات الإنسانية يجد نفسه أوَّلاً في الأشياء التي تشكل عالم اهتمامه، فكل واحد منا هو

(ISSN : 2536 - 9555)

ما يهتم به، نحن نفهم أنفسنا من خلال فهم عالمنا، فدون ذلك العالم لا يوجد شيء يُحدق فيه الاستبطان الذاتي، وتلك السيكولوجيا الهيدجرية تتشابه في نقطة البدء مع تناول كارل ماركس للسيكولوجيا، فالحياة عند ماركس لا يحددها الوعي الذاتي بل الوعي تحدده الحياة، وللإنسان طبيعة سيكولوجية متغيره، وبتطور المجتمع تظهر أشكال جديدة للوعي(6).

وبالعودة إلى فلسفة هيدجر عن الوجود والإنسان، نجده يذهب إلى أن الكائن الإنساني يتشكل بواسطة الزمان، والزمان عنده ليس وسيطاً نتحرك فيه، فهو صميم بنية الحياة الإنسانية نفسها، لأن الإنسان دائماً ملقى به إلى الأمام، ولا يستطيع أن يمسك بوجوده كموضوع اكتمل إنجازه، ولكن عندما يحاول أن يسلك طريقاً مُستقلاً ذاتي الفعل، أي أن يطابق فعله طبيعته الأنطولوجية، فهو قد حقق الأصالة, والتي تشير إلى الفرد الذي لا يحيا حياة مُسطحة دون أصالة، بمعنى أنه لا يترك حياته تحددها الأعراف الروتينية والآخرون في انقياد، الآخرون الذين يطلق عليهم هيدجر اسم (أل هم)، ففي الأنطولوجيا السياسية المتفرعة عن الأنطولوجيا العامة، يتحدث هيدجر عن نمط أصيل، نمط وجود هؤلاء الذين يسعون لفهم موقفهم ويمسكون بزمام حريتهم، وتحقيق لإمكانات يتطلبها أو يتيحها الموقف، فالأصالة مشروع موجه نحو المستقبل في موقف هو وجود الأفراد في العالم، الأفراد الذين هم دائماً وقبل كل شيء موجودون في موقف لم يختاروه، وداخل علاقة مع آخرين قد يختلفون عنهم كل الاختلاف، وذوي مستويات وجودية متباينة، ويتطلب الوجود الأصيل تجاوزاً لهذا الموقف، أي حركة واعية بعيداً عن أي حالة معطاة من الوجود لتحقيق الإمكانات المختارة، والتراجع عن السقوط المفروض واستجماع القوة الذاتية(7).

من الملاحظ أن تحليل بورديو للأنطولوجيا السياسية عند مارتن هيدجر, يعكس لنا تجربة بورديو الواضحة مع الفلسفة, التي اتخذت مسارين: الأول, نقده لهذه الفلسفة من منظور سوسيولوجي. والثاني, إرتباطه بهذه الفلسفة في فكره السوسيولوجي، ولعل بورديو نفسه يكشف لنا هذا من خلال كتابه: تأملات بسكالية Pascalian Meditations عام 2000م, الذي أوضح فيه الأسس المعرفية لبحثه في العقلانية التاريخية، وأسهب في تفسير منهجه الفلسفي والأنثروبولوجي، ليجدد بذلك صلته مع الفلسفة، ففي لقاء مع مجلة: الدراسات الفلسطينية الفصلية، التي تصدر بالفرنسية في باريس عام 2000م، يصرح بورديو قائلاً: "لن أجازف بالطبع بأن أقدم تلخيصاً فحسب لوصف الحقل الفلسفي الفرنسي، وتطوره منذ سارتر وحتى يومنا هذا، كل ما أستطيع قوله هو أنني لم أفهم إلا مؤخراً مبدأ القلق الذي كنت أشعر به دائماً أمام هذا الحقل، وهو المبدأ الذي أفصحت عنه في كتابي: تأملات بسكالية Pascalian Meditations ، أعني بذلك ما أطلقت عليه اسم (وجهة النظر المدرسية)، وهي وجهة نظر المتفرج الذي نظر لجهله بحاله هذا، فارضاً نفسه محل ومكان وجهة نظر الفاعلين المنخرطين في الممارسة العملية، ولأنني بدون شك لجأت إلى موضعة وجهة النظر هذه, كي أكون على مستوى فهم الممارسات (الطقوسية تحديداً) التي حاولت أن أموضعها، وأن أخذ فكرياً وجهة النظر العملية للفاعلين المنخرطين في العمل، فقد استطعت إنشاء نظرية –يقصد بورديو هنا نظريته في الممارسة– حول الوضعية النظرية التي تفصلنا عن منطق الممارسة، وعن ممارستنا بالذات، مُستعيناً بهذه الطريقة، وبتجربتي الأصلية مع العالم الاجتماعي، وهي تجربة أبقتني دائماً في منأى عن الانغماس داخل الوهم المدرسي"[8].

(ISSN : 2536 - 9555)

وعلى الرغم من إن بعض النقاد يرون في التأملات الباسكالية تماثلاً مع النظرية النقدية لأدورنو وهوركايمر، إلا أن ما يميز بورديو عنهم هو عدم اهتمامه بالانتماء إلى حقل الفلسفة مرة أخرى, خصوصاً مع بداية إنخراطه في المجال العملي, وأصبح أهم ما يراه في الفلسفة أنها مجرد أداة تساعده في فهم المجتمع.

ولعل بداية انتقالة بورديو من حقل الفلسفة تكمن في شروعه بالبحث في (فنومنولوجيا الحياة العاطفية)، أي البنيات الزمنية للخبرة العاطفية، وليستطيع التوفيق بين الممارسة على أرض الواقع والبحث الفلسفي, دَرَس بورديو الأثنولوجيا والأنثروبولوجيا القرابية، مُحاولاً أن يفهم بنيوية ليفي ستراوس، من خلال انخراطه في البحث الأنثروبولوجي, كما قام بقراءة لأعمال مجموعة من علماء السوسيولوجيا أهمهم: أميل دوركايم وكارل ماركس وماكس فيبر، مُتنقلاً بفكره من الفلسفة إلى الاثنولوجيا ثم الانثروبولوجيا، ساعياً إلى أن يصبح سوسيولوجياً من خلال محاولة إعادة إدخال فاعلين agents التي كان ليفي ستراوس وألتوسير Althusser يميلون إلى إلغائهم، جاعلين منهم مجرد ظواهر مصاحبه Epiphenomena للبنية.

ففي أخر درس ألقاه بورديو في الكوليج دوفرانس، نجده يُقيم تجربته العملية فلسفياً قائلاً: "لقد قمت بتمرين نظري كعالم اجتماع وباحث ميداني، وحاولت تحديد قوانين السلطة النظرية وآليات اشتغالها، أي الشروط الخصوصية لممارستها وتوزعها على البشر أو الفاعلين الاجتماعيين ضمن مجال معين، وهذا ما ينساه الفلاسفة عموماً، لأنهم يفكرون دائماً بمصطلحات الجواهر الخالصة... إنني أعود إلى الوراء بعد أن اجتزت الشوط عملياً، وذلك بغية استخلاص النتائج، لقد حان موعد الحصاد النظري، وما هذه الخلاصات أو التوليفات المتتالية إلا عبارة عن تجميع لمساهمات قام بها فلاسفة وعلماء الاجتماع ومنظرون، وهي

تبدو للوهلة الأولى أنها غير متوافقة مع بعضها بعضاً –أقصد بالتوليفات هنا النتائج الأساسية لفكر كارل ماركس وماكس فيبر وأميل دوركايم– يلومني البعض بأنني ماركسي وفيبري ودوركايمي معاً، اعتقد أن هذا مفخرتي لأني أخذ بعين الاعتبار الرأسمال النظري المتراكم من قبل مفكري الماضي، واعتقد أن العمل العلمي لا يتمثل بمحاولة التمايز والاختلاف عما فعله مفكرو الماضي من أجل التبجح بالتفرد والخصوصية، وإنما يتمثل في تجميع النتائج التي توصلوا إليها، ولكن ليس بطريقة تلفيقية وإنما عن طريق تجاوز التناقضات الموجودة بينهم، إن هذه التناقضات ناتجة عن وجهات النظر التي يكونونها عن العالم الاجتماعي، ولهذا السبب ينبغي أن نأخذ أيضاً بعين الاعتبار وجهة النظر التي يشكلها كل واحد منهم عن الآخرين... إن تقسيمات العالم الاجتماعي أو رؤيا العالم الاجتماعي قد حصلت لدى كل منهم من خلال وجهة نظر محددة، وأقصد بوجهات النظر هنا النقاط التي انطلاقا منها، وشكلت رؤاهم عن العالم الاجتماعي، اعتقد أن أخطاء ماركس مثلاً أو نواقصه قد اكتشفت بشكل رائع من قبل ماكس فيبر، لقد رأى ماكس فيبر مالم يره ماركس في العالم الاجتماعي، لسبب بسيط هو أن ماركس قد رأى ما رآه ولم يرَ غيره... وكذلك يمكن القول بأن دوركايم قد رأى ما لم يره فيبر"[9].

(2) أهم الانتقادات التي وجهها بورديو للفلسفة:

إن البصيرة التي يتشبث بها بورديو هي البصيرة العلمية، فهو لا يستطيع أن ينأى بعيداً عن كونه عالم اجتماع يتوسل الملاحظة والتجربة، وهو في الوقت ذاته لا يضع الحجب أمام إصغائه لما هو رفيع في الفكر، أي الفلسفة، لكنه أبداً يجد نفسه معنياً باقتحام اللامفكر فيه، والذي تشاطر الفلسفة من خلاله ذاتها لتترك مجالاً ترمي أوصالها فيه عندما يصل التأمل الفلسفي إلى حدود لا منجى

(ISSN : 2536 - 9555)

منها، فعلى الرغم من أن الفلسفة في رأيه كانت تسكن في برج عاجي، وبالتالي فهي مُنقطعة عن هموم الحياة الواقعية ومشاكل المجتمع، إلا أن المعرفة ينبغي أن تساعدنا على تشخيص مشاكل مجتمعنا لكي نعرف كيف نحلها أو نعالجها وإذا لم تفعل ذلك فلا فائدة ترجى منها ولا داعي لها، هذا هو السبب الذي دفع بورديو إلى دراسة الانثروبولوجيا وعلم الاجتماع، وتحول إلى باحث ميداني، ولم يعد مُقتنعاً بالخطابات النظرية أو الفلسفة التجريدية، تلك الفلسفة الميتافيزيقية التي تقول كل شيء عن اللاشيء، أو اللاشيء عن كل شيء، أما الفلسفة التي ترتكز على المعطيات المحسوسة للواقع والعلوم الإنسانية أو الطبيعية فإنه يحترمها جداً ويقدرها، وفي رأيه أن الفيلسوف لا ينبغي أن يكتب إلا بعد الاطلاع الواسع على العلوم الإنسانية.

ولعلنا نلتمس هنا اتفاق بورديو مع فلسفة لوي ألتوسير، الذي يعقب في كتابه: الفلسفة وفلسفة العلماء العفوية قائلاً: "أن الفلسفة تعلن عن أطروحات، قضايا لا تؤدي إلى براهين ودلائل علمية بالمعنى الدقيق، بل إلى تبريرات عقلية من نوع خاص... فالفلاسفة نشيطون بلا فائدة، أنهم مثقفون دون ممارسة، فهم يأخذون بعداً عن كل شيء ومقالتهم ليست إلا تفسيراً لهذا البعد، فهم يحاولون عن بعد أن يأخذوا الواقع في كلماتهم وأن يقحموه في منظومات... فالكلمات تتابع والمنظومات تتابع، أما العالم فهو يستمر في سيره في مكان آخر... لذا يجب أن نلاحظ أن المسائل الفلسفية ليست هي المسائل العلمية، فالفلسفة التقليدية تستطيع أن تعطي أجوبة على أسئلة تطرحها هي، لكنها لا تعطي حلولاً لمسائل علمية أو غيرها بنفس المعنى الذي يعطيه العلماء لحل مسائلهم العلمية، وهذا يعني أن الفلسفة لا تحل المسائل العلمية في مكان العلوم"[10].

من الطرح السابق نفهم أن بيير بورديو لم يكن راضياً تماماً عن فلاسفة جيله الذين سيطروا على الساحة منذ الستينيات وحتى أوائل الثمانينيات، وعلى الرغم من أنه قد أعجب بأستاذه: هنري غوهيبه، الذي حضر تحت إشرافه إطروحة جامعية بعنوان: "لا ينبتزا ناقداً لديكارت"، إلا إنه راح يبحث بعيداً عن الفلسفة دروس لها معنى في باريس، وأساتذة خارج الجامعة الرسمية (السوربون)، حيث يقول بورديو واصفاً هذه الفترة في لقاء أجرته معه مجلة الفكر العربي المعاصر: "كنت أحاول ككل أولئك الذين تعبوا من الوجودَية، أن أذهب إلى أبعد من مجرد قراءة المؤلفين الكلاسيكيين وأن أحاول إعطاء معنى ما للفلسفة، وكان جورج كانغليم وغاسيون باشلار بالنسبة لي بمثابة (الأنبياء المثاليين)، بالمعنى الذي يعطيه ماكس فيبر لهذه العبارة، ولما كانت الحركة الفينومينولوجية –الوجودية مسيطرة على الساحة فلم يكن أحد تقريباً يعرف بوجود هذين المفكرين، على الرغم من أن دروسهما كانت تفتح خطاً جديداً... ويستمر بورديو في مهاجمة الفلاسفة، مُعيباً كلاً من شاتليه ودريدا وغيرهم، إنهم ينظرون من موقع عالٍ يتعالى على الواقع، ويتجاوز الآخرين، بل أكثر من ذلك إنهم يسرقون –أي الفلاسفة– أعمال الباحثين المنخرطين على أرض الواقع في دراسات ميدانية عملية، ويسبغون على نتائجهم هيئة فلسفة تعميمية دون أن يذكروا مصدرها، أو يتعبوا في التوصل إليها... أما ميشال فوكو، فهو لم يقم بأبحاث ميدانية محسوسة مثله مثل بقية الفلاسفة، ولكنه كان يتميز بذكاء حاد، وكان يشتغل عن طريق الحدس أكثر مما يشتغل عن طريق المنهج، وغالباً ما كان حدسه يصيب، إضافة إلى أنه أول فيلسوف انتبه إلى أهمية علم التاريخ ومارسه"[11].

ومهما يكن الرأي في تأكيدات بورديو، أو هجومه الحاد على الفلاسفة، إلا إننا لا نستطيع مخالفة دعوته لانخراط الباحث على أرضية الواقع المعاش، وعدم

(ISSN : 2536 - 9555)

اكتفائه بأخذ العلم من بطون الكتب، وإنما أيضاً من واقع الحياة والتحريات الميدانية والتجارب المعملية.

(3) أهمية الفلسفة بالنسبة لعلم الاجتماع, وأهمية علم الاجتماع بالنسبة للفلسفة في نظر بورديو:

عندما وجه بورديو انتقادات لاذعة لنخبة المفكرين ومنهم الفلاسفة, لم يكن هدفه انتقاد الفلسفة كعلم, بقدر ما كان يبحث عن وضوح العلاقة بين الفيلسوف والتاريخ، من خلال رؤية تقوم على أن الفلسفة الاجتماعية التي تكمن في وظيفة الفيلسوف ووضعيته, لا تكون أشد وضوحاً إلا في العلاقة التي يقيمها الفلاسفة مع التاريخ، ولهذا الاعتبار يستأنس بورديو بفلسفة هيجل في التاريخ، لكنه يرفض ما تخوله الفلسفة من شعور لدى أصحابها بالتحرك فوق الحوادث العارضة للتاريخ، وحتى إن هي اعترفت بالتاريخ وأدمجته في مفهومها، كما هو الأمر عند هيجل، فإنه لا يكون إلا تاريخاً لنمو الماهية حيث لا يكون الحدث إلا لحظة لحلول العقل، موشيراً في معرض بحثه عن العلاقة بين الفلسفة والعلوم الاجتماعية عام 1983م، إلى موقع الهيمنة لمثل هذه التصورات الفلسفية، والتي غالباً ما تقضي على هؤلاء المهيمنين الذين يخضعون لهيمنتهم بأن يخلطوا (السمو النظري) بمجرد التلاعب اللفظي لفكر قلما تقلقه معرفة الأشياء، وهذا ما يجعل الخطر الذي تهدد به العلوم التاريخية، وخصوصاً السوسيولوجيا، التي يتم عن طريقها إقحام المجتمعي والسياسي اللذين يُستبعدان من مجال الثقافة الفلسفية، أمراً لا يعود لكون تلك العلوم تقتحم شيئاً فشيئاً المجالات التي كانت الفلسفة تنفرد بها.

لذلك يعتقد بورديو أن هذا التوجه لا يعدو أن يكون نفياً للمشروع الفلسفي للمعرفة، لكنه ليس بالنفي المطلق، إنما نفي للطرق الفاسدة وخاصة تلك المتأنية

من سلطة الرمز في لفظ الفلسفة أو الفيلسوف، فالإنسان كائن للاستحواذ سواء من المعرفة أو من الواقع، بل هو غالباً ما يؤطر حياته بأسوار تسمح للاستحواذ عليه، ولغرض الاحتياط من سطوة هذا الاستحواذ، لابُد من وجود نوع من النقد السوسيولوجي يحرص على إبراز الشروط النظرية والعملية للفكر الفلسفي، هذا النقد هو القادر وحده على أن يعطي الفعالية لخلخلة الفرضيات التي تنطوي عليها وظيفة الفيلسوف ووضعيته، أي للتاريخ المزدوج، الجمالي والفردي الناشئين عنه[12].

إذن فبورديو يحاول أن لا يتجاوز رغبة (نيتشه) مثلاً في تفكيك المداخل إلى الواقع وحيثياته، أو منح المنهج قدرة على تحويل دلالة المفهوم بحسب وضعية المجال الذي يقصده، ذلك أن وحدة الفكر الموروثة من القرون الوسطى، والتي تجعل سلطة مركزية أحادية التفسير، تلك المتحكمة في قراءة الوجود والمتواجد وتفسيرها، لا تجدي نفعاً حين الانصراف إلى قراءة العيني وتشخيص معطياته, خاصة إذا ارتبط بأحوال العصر المعقدة. والسوسيولوجيا حسب رأيه لا تتمثل إلا في تحويل مشكلات ميتافيزيائية إلى مشكلات قابلة لأن تعالج معالجة علمية، وهو أمر يفترض إقصاء المعطيات المجردة من واقع الميتافيزيا وإنزال العيني فيها والقابل للتجاور أو الانخراط في الواقع إلى حيز الاستقراء والملاحظة.

ثانياً: موضوع علم الاجتماع عند بيير بورديو.

يرى بورديو أن مهمة عالم الاجتماع تختلف عن التقني الاجتماعي الذي يتعامل مع البحث مثل المهندس حسب الطلب، لأنها تقوم على نزع الصفة الطبيعية والصفة الجبرية عن العالم الاجتماعي، أي تدمير الأساطير التي تستر ممارسة السلطة وتُخلّد السيطرة وتُعري العالم الاجتماعي، بحيث لا تكون هذه

(ISSN : 2536 - 9555)

التعرية بقصد إقصاء الآخرين أو إثارة الشعور بالذنب لديهم، بل على العكس من ذلك، يجب أن يهتم بجعل السلوكيات ضرورية وغير اعتباطية، ويعيد بناء مجال الإكراهات الذي يحدد تلك السلوكيات[13].

إذن فموضوع علم الاجتماع عند بيير بورديو يكمن في دراسة العالم الاجتماعي، ومدى فهمنا لطبيعة هذا العالم والعلاقات والنظم الاجتماعية السائدة في فضائه.

ولكننا إذا ما تفحصنا رؤية بيير بورديو إلى العالم الاجتماعي باعتباره فضاءً اجتماعياً (طبولوجياً)، يشكل البؤرة الرئيسية لاهتمامات عالم الاجتماع، لوجدنا أن هذه الرؤية لم تأتي من فراغ, بل استمدت جذورها الفكرية من علماء اجتماع كلاسيكيين, كانت لهم رؤيا واضحة في دراسة العالم الاجتماعي: كابن خلدون وأوجست كونت وأميل دوركايم وكارل ماركس وماكس فيبر. وسنتناول بشيء من الإيجاز آراء هذه المجموعة من العلماء, لا للتعريف بها، لأنها غنية عن التعريف سوسيولوجياً، ولكن لتعريف القارئ بالمدى الذي يقترب أو يبتعد عنه بورديو في أفكاره حول العالم الاجتماعي من هذه المجموعة، فنراه تارةً لا يخرج كثيراً عما ورد من أفكار لديهم، وتارةً أخرى يتناقض مع وجهة نظر وردت عند أحدٍ منهم، فعلى الرغم من أن أغلبية علماء الاجتماع يتفقون على أن المجتمع، هو بؤرة الاهتمام الرئيسية لدى كل عالمٍ اجتماعي، إلا أن المأخذ والأساليب التي ينتهجها كل واحد منهم في دراسته لهذا المجتمع، تختلف عن الأخرى.

ولنبدأ بابن خلدون، الذي يرى بأن "موضوع علم الاجتماع هو دراسة المجتمع البشري بأشكاله المختلفة، وتقصي الطبيعة والخصائص التي تتسم بها كل هذه الأشكال، والتمّعن في القوانين التي تحكم تطور الاجتماع الإنساني"[14]،

ولا يختلف أوجست كونت كثيراً عن رؤية ابن خلدون، لأنه يرى بأن "المجتمع مثله مثل العالم الطبيعي، يتمثل في أنشطته لقوانين ثابتة لا تتغير"[15]، ولعل الرؤية العلمية الوضعية التي انتهجها كونت من العلوم الطبيعية في دراسته للمجتمع الإنساني، جعلته مُنتمياً إلى المذهب الوضعي في علم الاجتماع، هذا المذهب الذي يعتقد بأن إنتاج المعرفة عن المجتمع ممكنة، إذا ما اعتمدنا على الدلائل التجريبية المستقاة من الملاحظة والمقارنة والتجريب.

أما أميل دوركايم، فيعتبر أن موضوع علم الاجتماع هو "دراسة الحقائق والوقائع الاجتماعية، باعتبارها أشياء، وإنه يمكن أن نحلل الحياة الاجتماعية بالطريقة نفسها التي نحلل بها الأشياء والأحداث في الطبيعة، وبدلاً من أن نطبق مناهج علم الاجتماع على دراسة الأفراد، فإن على علماء الاجتماع أن يركزوا بحوثهم على الوقائع الاجتماعية، أي على جوانب الحياة الاجتماعية التي تُقولب أفعالنا بوصفنا أفراداً، مُعتقداً أن للمجتمعات كينونة وواقعاً مُستقلاً بحد ذاته، وأن الحقائق الاجتماعية تتمتع بوجودها الواقعي خارج حياة الأفراد ومداركهم"[16].

وارتبط موضوع علم الاجتماع عند كارل ماركس، بأهم التغيرات التي طرأت على المجتمعات الإنسانية، مُقرناً هذه التغيرات بتطور نظام الرأسمالية في الإنتاج، فالتغير الاجتماعي في نظره لا يكمن فيما يحمله الناس من أفكار وقيم، بل إن حوافز التغير الاجتماعي تتمثل في المؤثرات الاقتصادية، مُحاولاً وفقاً لمفهوم (المادية التاريخية) لديه أن يتتبع أطوار نمو المجتمعات على مر التاريخ، لأن النظم الاجتماعية في نظره تنتقل من نمط إنتاج إلى آخر، بصورة تدريجية أحياناً، أو عن طريق الثورة أحياناً أخرى، نتيجة للتناقضات الكامنة في اقتصاداتها، بداية من مجتمعات الصيد حتى ظهور المجتمعات الرأسمالية، التي تقوم على احتكار رأس المال واستغلال العمال العاملين لديها، مما نجم عنه صراع

(ISSN : 2536 - 9555)

طبقي قائم بين طبقتين: طبقة برجوازية مالكة لوسائل الإنتاج، وطبقة بروليتاريا فاقدة لهذه الملكية، وإن هذا الصراع الذي يدور حول الموارد الاقتصادية سيزداد بمرور الوقت، حتى يحل نظاماً بديلاً عن النظام الرأسمالي، بموجب ثورة العمال الآتية لا محالة للإطاحة بالنظام الرأسمالي، وإقامة النظام الشيوعي الجديد، الذي لا طبقية فيه(17).

إلا أن ماكس فيبر قد رفض المفهوم المادي للتاريخ، والتأكيد المبالغ لماركس على الصراع الطبقي، فهو يرى –أي فيبر– أن العوامل الاقتصادية مهمة، غير أن الآراء والقيم لها أهمية تأثير مماثل على التغير الاجتماعي، وإن على علم الاجتماع التركيز على الفعل الاجتماعي لا على البنية الاجتماعية، فالدوافع والأفكار البشرية في نظره هي التي تقف وراء التغير الاجتماعي، وبمقدور الآراء والقيم والمعتقدات، أن تساهم في التحولات الاجتماعية، وبوسع الفرد أن يتصرف بحرية ويرسم مصيره في المستقبل.

ولم يكن فيبر يعتقد كما اعتقد دوركايم وماركس أن للبُنى وجوداً مُستقلاً عن الأفراد، بل إنه كان يرى أن البُنّى في المجتمع إنما تتشكل بفعل تفاعل تبادلي معقد بين الأفعال، وإن على عالم الاجتماع أن يتفهم المعاني الكامنة وراء هذه الأفعال، مؤكداً على ذلك في كتاباته بقوله: "إن علم الاجتماع هو العلم الذي يحاول تقديم فهم تفسيري للأفعال الاجتماعية بهدف الوصول إلى تفسير سببي لمجرياتها ونتائجها، أما الفعل الإنساني فإنه يكتسب طابعه الاجتماعي من خلال المعاني الذاتية المرتبطة به"(18).

بناءً على ما سبق فإننا نلاحظ مدى استمرارية وتواصل الاختلافات في أساليب المقاربة عبر تاريخ علم الاجتماع، وحتى عندما يتفق علماء الاجتماع

علـى موضـوع التحليـل، فـإنهم يقومـون بعمليـة التحليـل مـن خـلال زوايـا نظريـة مختلفة، ففي الوقت الذي ركز فيه دوركايم وماركس على قوة المؤثرات الخارجية في الفرد، انطلق فيبر من قدرة الفرد على التأثير في العالم الخارجي، وفيما أشار ماركس إلى هيمنة القضايا الاقتصادية، توسع فيبر في دراسة مجموعة العوامل المهمة الأخرى. والسؤال المطروح الآن هو: أين موقع بورديو من هذه الآراء؟

إن الإجابة على هذا السؤال تتضح لنا من خلال التحليل الذي قدمه بورديو إلى المجتمع كفضاء اجتماعي، يشمل على مجموعة من المجالات التي تتكون من مجموعة من الفاعلين يتنافسون على المواقع Positions داخلها، ومن الممكن أن ينضم الفرد إلى أكثر من مجال داخل فضاء اجتماعي واحد، ولكنه لا يمكن أن يشغل موقعين متعارضين في هذا الفضاء، ويتخذ موقع الفاعلين داخل الفضاء الاجتماعي بحسب الخصائص الثقافية والاجتماعية والاقتصادية لكل مجال، وبهذا يمكن أن يفسر العالم الاجتماعي كفضاء متعدد الأبعاد، مبني على أساس التباين أو التمايزات التي تؤسسها المواقع النشطة أو الفعالة داخل العالم الاجتماعي، لذا حاول بيير بورديو أن يقسم العالم الاجتماعي إلى مجموعة حقول أو ساحات مغلقة ومستقلة نسبياً Champs، لكي يفهم آلية كل حقل ووظائفه وطرائق اشتغاله قبل أن يخاطر بإطلاق حكم ما على المجتمع ككل[19].

وعلى غرار فيليب أبرامز, ومايكل ماند, وتشارلز تيلي, يستبدل بورديو مفهومي المجال Field والفضاء الاجتماعي Social space بمفهوم المجتمع، فبالنسبة له ليس المجتمع المتمايز كلاً متجانساً ينتج تكامله عن وظائف نسقية، وثقافة مشتركة ونزاعات متشابكة، أو عن سلطة عليا، بل مجموعة من ميادين اللعب المستقلة نسبياً، والتي لا يمكن ضمها تحت منطق مجتمعي كلي سواء، أكان منطق الرأسمالية أو الحداثة أو ما بعد الحداثة، أو على شاكلة نظم الحياة

(ISSN : 2536 - 9555)

لدى ماكس فيبر –نظم الحياة الاقتصادية والسياسية والجمالية والثقافية التي تنقسم إليها الحياة الاجتماعية في ظل الرأسمالية الحديثة– لأن كل مجال يحدد قيمه الخاصة، ويملك مبادئه المنظمة الخاصة، هذه المبادئ تحدد نطاق فضاء مُبين اجتماعياً، يصارع فيه الفاعلون، اعتماداً على الموقع الذي يحتلونه في ذلك الفضاء، إما للتغيير أو للحفاظ على حدوده وشكله[20].

ولعل هذا التعريف يقودنا إلى خاصيتين محوريتين هما:

1- إن أي مجال هو نسق منظوم من القوى الموضوعية، وهو تشكل علائقي له جاذبية نوعية يفرضها على كل الموضوعات والفاعلين الذين يدخلون فيه.

2- إن أي مجال هو فضاء نزاع ومنافسة، يتبارى فيه المشاركون في تأسيس احتكار لأنواع رأس المال الفعالة فيه –السلطة الثقافية في المجال الفني، والسلطة العلمية في المجال العلمي، والسلطة الكهنوتية في المجال الديني– وخلال مسار هذه الصراعات، يصبح نفس شكل وتقسيمات المجال موضوعاً محورياً للرهان، لأن تغيير التوزيع والوزن النسبي لأشكال رأس المال، يعادل تعديل بنية المجال، وهذا يمنح أي مجال دينامية تاريخية ومرونة تفلت من الحتمية المتصلبة للبنيوية الكلاسيكية[21].

والحقيقة أن بيير بورديو قد أبدع في تحليله لمعنى الفضاء الاجتماعي، عندما استخدم لغة مجازية، وتشبيهاً بلاغياً (ملعب كرة الرجبي) كناية عن هذا الفضاء، وعما يحدث فيه من تفاعلات، موضحاً إلى أن ما يحدث في الفضاء الاجتماعي يشبه إلى حد كبير ما يحدث بين لاعبي كرة الرجبي داخل الملعب، فالحياة الاجتماعية في رأيه تشبه المباراة، ولكن بقدر أكبر من المخاطرة، وهي ليست نضال مستمر فقط، بل إنها تحتاج إلى الارتجال باستمرار، ولا تتطلب أية

مباراة مجرد فهم قواعدها بل يتعين أيضاً وجود حس خاص بالمباراة، حس بكيفية اللعب، وهذا حس اجتماعي، فهو يتطلب الوعي المستمر بالخصم والاستجابة له، ولاعب الرجبي الجيد يظل دائماً على وعي بالميدان ككل ويتوقع ما سيفعله أقرانه، فيعرف متى يمرر الكرة، ومتى يتصرف من وحي نفسه، واللاعب الجيد ليس فقط من يستطيع تسديد رميه، بل من يعرف متى يفعل ذلك، كما تحتاج المباريات إلى تخطيط استراتيجي، ففي كل مباراة عدة أساليب محتملة تختلف بكل لحظة فيها، والخطة الجيدة تُعرف من خلال قواعد اللعبة بطبيعة الحال، ولكن أيضاً من خلال تقدير نقاط القوة والضعف لدى الخصم ولدى الذات، ومن بين عناصر كثيرة تحدد نتيجة المباراة، هناك الإبداع والإلهام، ويعتمد قرار اللاعب بتسديد ضرباته على علاقة معقدة ناتجة عن عناصر عدة، وليس قراراً وحيداً واعياً، أو قد يكون ببساطة قراراً وحيداً ولكن يتخذ بعد فوات الأوان، ويتعين أن يكون لدى اللاعب حس بدني بمدى قوة ضربة الإرسال ووعي بالضربة التي يرد بها خصمه، وليس هناك انفصال حاد بين التفكير والفعل البدني، كما ينشأ لديه ميل نحو الاندفاع بشدة نحو الشبكة أو هوناً، إما أن يخاطر أو ينزع نحو السلامة، أن تشعر بالثقة بقوته البدنية وسرعته، أم يعتمد أكثر على انتهاز فرصة تتيحها نقاط ضعف خصمه، وينتج هذا عن سنوات من الخبرة وجزئياً عن تعليمات مدربة والانضباط في التدريب، كما أن المدرب قد يستعين بالنظرية لتحليل نقاط القوة والضعف في أداء اللاعب في المباراة، وقد تكون نصائحه للتطبيق على المدى الطويل أو للانتفاع بها في مواجهة لاعب معين في مباراة ما، وفي الحالتين لا يمكن اختزال ما يقوم به اللاعب إلى قواعد نظرية، بل هو ارتجال وأحياناً تنتج أفعاله عن حالات إلهام مفاجئة أو عن أخطاء كالكارثة، ولكن في حالة اللاعب الجيد تصبح أفعاله تجسيداً لأسلوب يتسم بالاتساق الشديد، وهذا ما يسميه بورديو الهابيتوس

(ISSN : 2536 - 9555)

Habitus، أي مقدرة كل لاعب في المباراة على ارتجال الخطوة التالية، واللعبة التالية، الضربة التالية[22].

قد نولد ولدينا إمكانات وراثية كبيرة أو محدودة، ولكن لا نولد ولدينا هذا الهابيتوس Habitus، بل إنه شيء يتولد لدينا بالتكرار مثل العادة، وشيء يعرفه الجسم مثلما يعرفه العقل، فلاعب الكرة المحترف يسدد ملايين الضربات قبل أن يصبح محترفاً، وبعض هذه الضربات تسدد في مباريات التدريب التي تهدف إلى شحذ مهاراته الفنية خارج نطاق ضغوط ومصادفات المباريات الرسمية، غير أن الخبرة العملية والمعرفة النظرية للاعب تأتيان أيضاً من غمار الممارسة وسط حشود الجماهير في المباريات الحقيقية حين يملأ قبله أمل النصر، والخوف من أن يخذل زملاءه، وينشأ لديه شعور هادئ بالثقة في قدرته على تسديد الضربات والتركيز في اللعب وسط الجلبة المحيطة من تجاربه السابقة، ويصبح هذا جزءاً من هابيتوس اللاعب، وعادةً ما يكون الفرق بين الرياضي الفذ والرياضي متوسط القدرات الذي يكتفي بشرف المشاركة أمر يصعب تحديده، فهو ليس مجرد القدرة البدنية، ولكن مزيج من الثقة والتركيز والمقدرة على الارتفاع إلى مستوى الحدث، هذه الثقة يتعلمها اللاعب من آلاف المباريات السابقة في الملاعب، في المدرسة، في الجامعة...الخ.

ويرى بورديو أننا نفعل الشيء نفسه في المجتمع إذ أن خبرتنا في النضال من أجل التفوق تُعلمنا أن نقبل عدم المساواة، ونكتسب إحساساً بما يمكننا أن نفعله في حدود قدراتنا، ويتجدد هذا الإحساس في هابيتوسنا Habitus، فأنا مثلاً أود لو أستطيع أن أصبح لاعب كرة فذاً، ولكنني وطدت نفسي على أنني لست كذلك، وبصورة أبسط أصبحت أعتبر لعبة الكرة مجرد تسلية ألعبها، وأحياناً ألعب بعنف ولكن لا ألعب لأن حياتي تتوقف على ذلك، إنما اللعبة التي أمارسها

بصورة جادة هي اللعبة التي تعلمتُ من صغري أنني أجيدها أكثر من غيرها، وهي تعتمد على سرعة التفكير لا سرعة القدمين، ألعبها إذ تتوقف عليها حياتي، فأحصل من جرائها على راتبي وعلى شعوري بالإنجاز المهني، وإحساسي أنه من خلالها أقدم مساهمة لمساعدة الآخرين، ثم هناك المباريات التي نلعبها جميعاً سواء أجدنا فيها أم لا –كالحب والزواج، وتربية الأطفال ومحاولة مساعدتهم على النجاح، والبحث عن الممتلكات المادية– إن رغبتنا في أشياء معينة تحدد التزامنا بلعبة ما، ونحن لا نخترع هذه المباريات بأنفسنا بل هي نتاج التاريخ والصراعات الاجتماعية، وارتجاليات من سبقونا أو ما فرضه الفاعلون الذين لديهم سلطة، أن يحددوا الأساليب الصحيحة والخاطئة في الحب والزواج وتنشئة الأطفال، وحتى نفهم أي موقف أو تفاعل اجتماعي، يتعين أن نسأل ما المباراة التي يلعبها الفاعلون؟ وهذا يشبه إلى حد بعيد ما يحدث داخل الميادين المختلفة في حياتنا المعاصرة، في التعليم والقانون والأسرة...الخ، وما الذي يستثمرونه في لعبتهم؟ وهذا الذي يستثمرونه أو يخاطرون به هو ما يحدد المكسب من الخسارة، قد تكون اللعبة الأدب مثلاً، حيث يسعى اللاعبون إلى تحقيق شهرة، أو إلى تخليد أسمائهم بأن تدرج هذه الأسماء ضمن مبدعي التراث الأدبي، أو قد يسعون إلى تحقيق الثروة إذا كانت لعبتهم الأعمال التجارية، وقد يسعون إلى السلطة في لعبة السياسة، ويحدد القدر المستثمر في كل لعبة أسلوب اللاعبين في تحديد نطاق مجالها واستقلالها[23].

عقب هذا التحليل يبدوا أن بورديو متفرداً في نظرته إلى الفضاء الاجتماعي، الذي يرى أن السوسيولوجيين أنفسهم يسهمون في صنعه، بالرغم من أنهم يدّعون أنهم يدرسونه ويصفونه فقط، فالواقع الاجتماعي هو موضوع للإدراك، ولابُد للعلم الاجتماعي من أن يجعل موضوعه كلاً من هذا الواقع وإدراك هذا

(ISSN : 2536 - 9555)

الواقع، ووجهات النظر التي لدى الفاعلين عن هذا الواقع, بفضل موقعهم في الفضاء الاجتماعي الموضوعي، فالرؤى العفوية للعالم الاجتماعي، أو ما يسمى (السوسيولوجيا العفوية)، كلها تشكل جزءاً من الواقع الاجتماعي, ويمكنها مثل النظرية السوسيولوجية أن تكتسب قوة بنائية وواقعية تماماً: " إن إدراك عالم الاجتماع لنسبية الواقع على اعتبار أنه رؤى متعددة ومتراكبة، وأحياناً متناقضة، يجعل من مهمته معقدة أحياناً، إذ يصبح في موقع الرهان على الصراعات بين الفاعلين، ويحمل مسؤولية إضفاء المشروعية على رأس المال الرمزي، الأمر الذي يضفي على منظور ما قيمته المطلقة الشاملة، ويصبح تحليله عندها أشبه بتقارير الشرطة التي تفرض وجهة نظر المؤسسة من خلال الاستبيانات والاستمارات الرسمية، مما يجعل وجهة نظرها هي الوجهة الوحيدة المشروعة، ويجب أن تكون وجهة نظر كل شخص متطابقة معها أو على الأقل عليه أن يعترف بشرعيتها داخل حدود مجتمعه" [24].

ولا يدعي بورديو مطلقاً أن العالم الاجتماعي يخضع لقوانين غير قابلة للتغيير، فعلى الرغم من أنه يرسم للعالم الاجتماعي صورة مُبنينة، إلا أنه لا يقبل الفكرة القائلة بأن هذا العالم يتطور وفق قوانين محايثة لا تستطيع الأفعال البشرية أن تغيرها (هيرشمان)، بل إن القوانين الاجتماعية حسب رأيه هي انتظامات محدودة في الزمان والمكان، تظل موجودة طالما سُمح للشروط المؤسسية المقومة لها بالاستمرار، إنها لا تعبر عما يسميه دوركايم (بالضرورات الحتمية)، وإنما تُعبر بالأحرى عن علاقات تاريخية يمكن في الغالب فسخها سياسياً مهما قلت معرفتنا الضرورية بأصولها الاجتماعية.

هذا ويشير بورديو إلى أن العائق الأساسي الذي يعانيه علم الاجتماع هو الاتجاه نحو النبوءة، فالعلم في رأيه لا يعبر –ولا يفترض به التعبير– عن عقائد

أو مذاهب، لأن ذلك لا يكشف الواقع أو الظواهر الاجتماعية فيه، بل يعمل على تغطيته وتشويهه وإبرازه على غير ما هو عليه، وكما هو معروف فالدعوات التنبؤية ليست أفكاراً أو مفاهيم علمية، إذ لم تتشكل علمياً بواسطة مناهج علمية, بقدر ما تتشكل من أفكار غامضة تعبر عن رغبات وتصورات ومطامع وأهداف(25).

ولعل موقف بورديو يعبر عن الرغبة في محاربة المناهج التقليدية، واستخدام مناهج حديثة أكثر علمية، فهو يعتبر أنه من غير المعقول أن يتوجه عالم الاجتماع إلى أصحاب العقول البسيطة ليكسب رضاهم ومودتهم وتأييدهم له، فغايته ليست المعرفة العامية البسيطة، أو المعرفة العفوية الغامضة، إنما المعرفة العلمية التي تتجاوز المصالح الضيقة، مُديناً بشدة موقف غير الاختصاصيين من علماء الاجتماع، لأن دور عالم الاجتماع ليس التأكيد على أفكار غامضة وحقائق مشوشة، بل كشف ما هو موجود في الواقع، وقول ما هو جديد.

ويلخص لنا (بيار أنصار) موضوع علم الاجتماع عند بيير بورديو بقوله: "إذا حاولنا أن نخلص إلى ما هو الموضوع الجوهري لعلم الاجتماع في أعمال بورديو، قد لا نستطيع أن نقدم سوى اهتمام مزدوج ما زال يستعاد: الاهتمام بتحليل البنيات الاجتماعية والبنيات الرمزية، من خلال كل نتائجها، والاهتمام بالتساؤل حول مختلف العلاقات المستترة بين هذين النسقين، فعلى بنيوية ميكانيكية تخلط بين البنية الاجتماعية والبنية الرمزية أو تطرحها متماثلتين، يرد بورديو بتفكير تكويني لا ينقل جواباً دوغمائياً بتعابير الإنتاج ذي البعد الواحد، بل بتعابير الجدليات المتعددة، إذ أن كل تجدد في التصورات يعقد العلاقات بين البنيات الاجتماعية والبنيات الرمزية"(26).

(ISSN : 2536 - 9555)

ثالثاً: تصورات بييربورديو عن المجتمعات الإنسانية.

بورديو كغيره من المفكرين حاول أن يقدم لنا تصوراً للعالم الاجتماعي الذي يعيش فيه، من خلال إبراز ملامحه الأساسية، في صورة تحليلية نقدية، انتقل بها من مستوى التحليل الميكروسكوبي (والذي تمثل في تصوره عن عالمه الفكري الخاص (الجامعة)، إلى مستوى التحليل الماكروسكوبي (والذي ظهر في تصوره عن العالم الاجتماعي في المجتمعات الرأسمالية الليبرالية، والمجتمعات الاشتراكية)، ليرسم لنا في نهاية الأمر رؤية تحليلية تقوم أساساً على التعمق في دراسة دوافع الوقائع والأحداث الاجتماعية، للكشف عن مجموع العوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، المسئولة بصورة رئيسية أو جزئية عن شكل المجتمع والعمليات الدائرة بداخله.

(1) تصوره عن المجتمع الأكاديمي المصغر (الجامعة):

يعرض لنا بيير بورديو تصوراً لدراسة اجتماعية لعالمه الفكري الخاص (الجامعة)، في كتاباته: (التمييز La Distinction: Critique sociale du jugement عام 1979م، والإنسان الأكاديمي Homo Academicus عام 1984م، ونبل الدولة La Noblesse d'État عام 1989م)، لا ليكتب دراسة أحادية عن الجامعة الفرنسية وكلياتها، بل ليطرح مشكلة أساسية بخصوص المنهج السوسيولوجي، والمناخ الأكاديمي السائد بين المثقفين الفرنسيين، ففي كتابه: الإنسان الأكاديمي Homo Academicus عام 1984م، والذي احتفظ به بورديو لفترة طويلة لم ينشره خشية منه من أن يُفهم على نحو متعارض مع أفكاره المطروحة، خصوصاً فيما يتعلق بنقده للأغلبية الكبرى من الأكاديميين الجامعيين، والنزاعات الداخلية للحقل الجامعي، يقدم لنا بورديو تحليلاً نظرياً عن المجتمع

الأكاديمي المصغر (الجامعة) لا يبتعد كثيراً عن ما قدمه في كتابه: التمييز La Distinction: Critique sociale du jugement عام 1979م, خصوصاً في الفصل الذي يحمل عنوان: (الطبقات والتصنيفات)، والذي يحلل فيه التأثيرات الاجتماعية للتغيرات في العلاقات بين المجال الأكاديمي والمجال الاجتماعي، ليتابع هذا التحليل مساره في كتابه: نبل الدولة La Noblesse d'État عام 1989م، إلا أن كتابه: الإنسان الأكاديمي Homo Academicus عام 1984م، كانت له خصوصيته عند بورديو، من حيث إن العمل الذي تتطلبه الموضعة العلمية يقترن بعمل على الذات التي تقوم بالموضعة، فلا يمكن للمرء أن يشتغل في موضوع ما، دون أن يخطر بباله في كل لحظة أن الذات التي تقوم بالموضعة هي نفسها مموضعة، إذ أن أشد التحاليل قسوة تكون مكتوبة بوعي كامل الوضوح، بحيث إنها تنطبق على من يكتبها، وفضلاً عن ذلك فإن عدداً ممن تمسهم، لن يفكروا لحظة بأن مؤلف هذه الجملة يعد هو كذلك موضوعاً لها[27].

إن هذا يقودنا بداية إلى طبيعة العلاقة التي تربط بورديو بزملائه الأكاديميين في الجامعة الفرنسية، حيث كانت له صراعات مع زملاءه الذين أحسوا على نحو شديد بعنف الموضعة، ولكنهم رأوا تناقضاً في أنه – أي بورديو– كان يستطيع أن يموضع دون أن يفكر في ذاته نفسها، في حين أنه بداهة ما كف قط عن القيام بهذا التفكير.

فالوسط الجامعي آنذاك كان منقسماً إلى مجموعتين: مجموعة من الوسط تقع على الجهة اليمنى من الرسم البياني، والتي كان من الممكن أن يكون بورديو قريباً منها لو أنه لم يقم بسلسلة من الانعطافات في المسار الجامعي الطبيعي، تحتل هذه المجموعة بجانب من له السلطة على وسائل إعادة الإنتاج الأكاديمي،

(ISSN : 2536 - 9555)

فمنهم رؤساء لجنة التبرير في الفلسفة، أو أعضاء المجلس الوطني للجامعات. أما المجموعة الثانية، والتي يعتقد بورديو أنها قريبة منه في الرسم كفوكو أو دريدرا، فهم ممن تجشموا العناء في أن يموضعوا أسباب عدائهم لأولئك الذين اتبعوا مساراً عادياً، وفي أن يفصحوا لماذا على العكس يعاديهم هؤلاء الآخرون؟

لعلنا من خلال تحليل مسار بورديو الفكري سيكتشف لنا أنه يعتبر أشد نقاد مدارس النخبة، فهو يرى أنه لا يشعر أبداً, بأنه مثقفاً ينتمي إلى العالم الجامعي. وعلى الرغم من إنه لا توجد ثقافة تفتخر بمثقفيها مثلما تفعل الثقافة الفرنسية، خصوصاً عندما تحتفي بهم إعلامياً، إلا إن بورديو يستهجن الاحتفاء الشديد بالنخبة المثقفة، ويرفض من خلال حياته العملية أن يكون المثقف مرآة نرجسية على شاشات التليفزيون الإعلامية، مُشككاً بذلك في شرعية أن يكون المثقف مثقفاً كاملاً، ساخراً مما يجري على كاميرات التليفزيون من احتفاء بهذه النخبة المثقفة، وتقديم المنح الدراسية وكأنها جوائز البرامج الموسيقية، مُعرباً عن سخطهِ إزاء السلطة التي تتمتع بها هذه النخبة من المثقفين الذين يتحكمون في التعيينات داخل الجامعة ومعاهد البحث العلمي، مُتناسياً أنه ينتمي إلى هذه النخبة المثقفة، خصوصاً عقب شغله لمنصب الأستاذية في الكوليج دوفرانس، وهو أرفع منصب أكاديمي في فرنسا.

أما عن تصوره للمناخ الأكاديمي السائد في المؤسسة الجامعية، فإننا قد لا نعتبره تصوراً بقدر ما هو إنعكاس واضح للواقع الأكاديمي الذي عايشه بورديو في الجامعة الفرنسية، فالرجل المتعلم أو الأكاديمي academicus, jehomo scholasticus عنده هو شخص حالته تسمح له أن يلعب بجدية، لأن الدولة تؤمن له الوسائل، أي الوقت المتحرر من ضرورات الحياة والكفاءة التي أمَّنها التدريب الخاص في قاعدة التعليم، وأخيراً بشكل خاص استعداد للاستثمار، وأن

يستثمر نفسه في رهانات لا طائل منها، على الأقل في نظر الناس الجديين الذين يحيطون بالعالم الأكاديمي، وينبغي للدخول في هذه العوالم التي تنتج أفكاراً متحررة من الضغوط ومن حدود الظروف التاريخية، توافر الوقت للتعلم Skhole، كما ينبغي توافر الاستعداد للعب بألعاب مجانية يتم اكتسابها وتدعيمها في ظروف التعليم، إلا أن المؤسسة التعليمية، تقيم عن طريق إحداث قطيعة بين طلاب المدارس العليا وطلاب الكليات، حدوداً اجتماعية موازية لتلك التي تفصل بين الاستقراطية الكبيرة والاستقراطية الصغيرة، وبين هذه الفئات والكادحين البسطاء، وهذا الفصل محدد في شروط الحياة نفسها بالتعارض بين حياة العزل للإقامة الداخلية في المدارس، والحياة الحرة للطالب، ثم بعد ذلك في مضمون وتنظيم عمل الإعداد للمسابقات، فمن جانب هناك الأطر الصارمة وأشكال التعليم شديدة المدرسية، الذي يشبه بصورة ساخرة عالم المؤسسة الاستثمارية. ومن جانب آخر، تحتوي حياة الطلبة، التي تقترب من تقاليد الحياة البوهيمية، على درجة أقل من الانضباط والالتزام حتى في الوقت المخصص للعمل، ويتحدد الانفصال أيضاً بواسِطة منظومة التسابق التي تقيم اختلافاً طبيعياً بين آخر طالب مقبول وأوَّل طالب راسب، وحرمانه من الحق في حمل اسم ولقب، وهذا يمثل عملية سحرية حقيقية تجد نموذجها Poradigme في الفصل بين المقدس والدنيوي حسب تحليل دوركايم, تعتبر عملية التصنيف التعليمية دائماً وخصوصاً في هذه الحالة عملية ترسيم Ordination بالمعنى المزدوج لهذه الكلمة في اللغة الفرنسية، إنها تكرس فارقاً في الرتبة الاجتماعية وعلاقة محسومة بجامعة معنية، فالمختارون مميزون طوال حياتهم بانتمائهم (خريج معهد كذا)، إنهم أعضاء في رهبانية Ordre، بالمعنى المتداول لهذه الكلمة في العصر الوسيط، وطائفة أشراف، أي جماعة مقصورة بوضوح على بشر منفصلين عن عامة الناس، وبمقتضى ذلك

(ISSN : 2536 - 9555)

يسودون، ولذا فالفصل الذي تحدثه المعاهد التعليمية هو ترسيم، بمعنى تكريس وتنصيب في فئة مقدسة أرستقراطية[28].

ويتابع بيير بورديو تحليله للمناخ السائد في المجتمع الأكاديمي المصغر (الجامعة) في أحد فصول كتابه: التمييز La Distinction: Critique sociale du jugement عام1979م الذي يحمل عنوان: (الطبقات والتصنيفات)، والذي يُحللّ فيه التأثيرات الاجتماعية للتغيرات في العلاقات بين المجال التعليمي والمجال الاجتماعي، حيث تشكل المدارس مجالاً يميل –أكثر من أي مجال آخر– إلى إعادة إنتاج نفسه، ويرجع ذلك من بين أسباب أخرى، إلى حقيقة أن الفاعلين يملكون التحكم في إعادة إنتاج أنفسهم، إضافة إلى أن المجال التعليمي في قبضة قوى خارجية، وبين أقوى عوامل التغير في المجال التعليمي، لدينا ما سماه الدوركايميون باسم (التأثيرات المورفولوجية)، فمن أجل فهم تأثيرات التحولات المورفولوجية، عليك في الحقيقة أن تضع في الاعتبار مجمل منطق المجال، الصراعات الداخلية للهيئة المهنية، والصراعات بين الكليات، والصراعات داخل كل كلية، وبين المراكز الأكاديمية المختلفة، والمستويات المختلفة للتدرج التدريسي، وكذلك الصراعات بين مختلف التخصصات، وتكتسب هذه الصراعات فعالية تحويلية أكبر حين تواجه عمليات خارجية.

فمثلاً في فرنسا مثلما في بلدان عديدة، نجد أن العلوم الاجتماعية، السوسيولوجيا والسيميولوجيا واللغويات وما إلى ذلك، التي تُقِدم في ذاتها شكلاً من التخريب لتقاليد الكلاسيكيات القديمة للتاريخ الأدبي، أو فقه اللغة أو حتى الفلسفة، قد وجدت تعزيزات لها في الأعداد الضخمة من الطلبة الذين انجذبوا إليها، استتبع هذا التدفق من الطلبة بدوره زيادة في عدد المحاضرين الكبار والصغار، مما أدى

إلى نِزَاعات داخل المؤسسة الجامعية، وكانت انتفاضات مايو 1968م الطلابية، تعبيراً عنها جزئياً، وبإمكانك أن ترى كيف أن المصادر الدائمة للتغير، أي الصراعات الداخلية، تكون فعالة حين تواجه المطالب الداخلية للكهنة الصغار (المحاضرين الصغار)، الذين يميلون دائماً إلى المطالبة بالحق في مهنة كلية[29].

وينتقل بنا بورديو عقب هذا التصور إلى طرح المشكلة الأساسية التي تعترض قيام علم اجتماع في الوسط الفكري الجامعي، تكمن في أن المثقفين هم علماء اجتماع عفويين، مثل جميع الفاعلين الاجتماعيين، ولكنهم ذوو موهبة بشكل خاص لكي يموضعوا الآخرين، فكونهم محترفين في الخطاب والتفسير يمنحهم مع ذلك استعداداً خاصاً لأن يعطوا لعلم الاجتماع العفوية التي لديهم، أي نظرتهم المغرضة إلى العالم الاجتماعي، فعقب الأزمة التي وصلت حدها الأقصى في المؤسسة الأكاديمية الجامعية مع الحركة الطلابية في مايو 1968م، حاول بورديو أن يقوم بنوع من الاختبار الاجتماعي لعلم الاجتماع، عندما وقف ضد أولئك الذين يحتجون بأن عالم الاجتماع مُتموقع اجتماعياً، لكي يقوّض المعرفة التي يقدمها علم الاجتماع، أو لكي ينتقص الدراسة الاجتماعية باعتبارها علماً، على الرغم من أن علم الاجتماع يستطيع أن يفلت بقدر معين من تلك الدائرة التاريخية معتمداً على معرفته بالمجال الاجتماعي.

ولعل بورديو أراد بذلك أن يتابع هدفاً وموضوعاً مزدوجاً: الموضوع الظاهر، الذي تمثله الجامعة الفرنسية بوصفها مؤسسة، ومن هنا تحليل بنيتها واشتغالها، وتحليل مختلف أنواع السلطة الناجعة فيها، ومسارات الفاعلين المتموقعين بها، والوجوه المتنوعة من النظرة الأستاذية إلى العالم. والموضوع العميق، الذي يتمثل في الرجوع الانعكاسي الذي تفرضه الموضوعية ضد عالمها الخاص، أي ضد مؤسسة معترف بها اجتماعياً، كأنها مفوضة لتطالب

(ISSN : 2536 - 9555)

بالموضوعية والشمولية لموضوعاتها الخاصة، داعياً إلى تحرر الحقل العلمي بالجامعة من وضع السلطة الأكاديمية الذي يتيح ضبط الأوضاع الأخرى – أي برامج التكوين ومطالب التعليم، وفرض نهج قويم معين، ومواقع الاحتكار – فتلك لا علاقة لها بحقل علمي، فالحقل العلمي مجال مستقل، يجب على الباحثين فيه لكي يتواجهوا فيما بينهم، أن يتخلوا عن كل الأسلحة غير العلمية، بدءاً بأسلحة النفوذ الأكاديمي، وفي حقل علمي أصيل، يمكن لنا أن ندخل بحرية في مناقشات حرة، لأن الوضع الذي نشغله لا يتبع لنا، أو نحتل وضعاً أخر في مكان ما، ويبين التاريخ الفكري إن علماً تعارضياً من حيث هو مدار للمناقشات، ومليء بالصراعات الأصلية أي العلمية، يعد أشد تقدماً من علم يسود فيه إجماع مؤسس على مفاهيم مطاطة وبرامج مبهمة[30].

إن محاولة بورديو في تقديم صورة عن المجتمع الأكاديمي المصغر (الجامعة) في كتابه: الإنسان الأكاديمي Homo Academicus عام 1984م، فتحت الباب على مصراعيه أمام مجموعة من التساؤلات والانتقادات التي وجهت له في مواقع عديدة، أهمها هي: أن الإنسان الأكاديمي Homo Academicus عام 1984م تناول حالة خاصة في لحظة خاصة، هي الجامعيون الفرنسيون في الستينيات، فكيف يمكن أن تعمم التحليلات التي يقترحها بورديو في كتابه هذا؟ وهل يمكن مثلاً أن يقع العثور على بنيات المجال الأكاديمي الفرنسي في بلد آخر، في لحظة أخرى؟

يعقب بورديو على هذه التساؤلات قائلاً: "إن الخصوصية التاريخية للحالة الفرنسية لا يُعرض تبعات التحري، الذي قمتُ به في كتاب: الإنسان الأكاديمي Homo Academicus عام 1984م، ذلك أن أحد أهداف الكتاب، هو أن يبين التعارض بين الكلي والفريد، بين التحليل الشمولي والوصف الخصوصي، إنما هو

نقيضة زائفة، فنمط التفكير العلاقي والمماثلي الذي ييسره مفهوم الحقل، يتيح أن تدرك الخصوصية داخل العمومية، والعمومية داخل الخصوصية، ممكناً من اعتبار الحالة الفرنسية بما هي كما يقول (باشلار 1949)، بل إن الخصائص التاريخية التي ينفرد بها الحقل الأكاديمي الفرنسي، مثلاً درجته العالية في المركزية والتوحيد المؤسسي –حواجزه للدخول المحددة جيداً– تجعل منه ميداناً ملائماً بشكل كبير لاكتشاف بعض القوانين الكلية التي تنظم نزوعياً اشتغال كل الحقول... يمكن ويجب أن يُقرأ الإنسان الأكاديميHomo Academicus باعتباره برنامجاً للبحث في أي حقل أكاديمي وفي الواقع، فإنه بمجرد تجريب ذهني، يستطيع القارئ الأمريكي أو الياباني أو البرازيلي...الخ، أن يقوم بعمل النقل، وأن يكتشف بفضل استدلال مماثلي، عدداً مهماً من الأمور عن مجاله المهني الخاص، وبطبيعة الحال فإن تلك التجربة الذهنية ليست بديلاً عن دراسة علمية معمقة للحقل العلمي الأمريكي... لقد فكرت مُنذ بضع سنوات في أن أقوم بمثل هذه الدراسة، وكنت بدأت في جمع المعطيات والوثائق في أثناء وجودي سابقاً بالولايات المتحدة في تلك الفترة، كنت أفكر حتى في أن أُكون فريقاً مع بعض الزملاء الأمريكيين، لكي نحاول ضم امتيازات التمكن من نموذج مقارن وامتيازات الألفة الأولية للمجال المراد تحليله، واعتقد أن مشروعاً كهذا في الحالة الأمريكية، قد يكون على نحو معين أسهل في التحقيق، على اعتبار أنه توجد سلفاً معطيات مفصلة جداً وفي المتناول بشكل مباشر عن الأساتذة، وعن مختلف مجموعات الطلاب وعن الجامعات، وبالخصوص عن التراتبات الجامعية وترتيبات أقسام الشُعَبْ– أما في فرنسا، فكان على أن أبني حشداً كاملاً من المؤشرات التي لم تكن موجودة– بل إنني أرى أنه يمكن مُسبقاً الحصول على نتائج هامة بواسطة تحليل ثانوي للمعطيات الموجودة، وافترض أنه قد يمكن أن

(ISSN : 2536 - 9555)

نعثر على التعارضات الجوهرية نفسها، ولاسيما بين الرأسمال الأكاديمي المرتبط بالسلطة الممارسة على وسائل إعادة الإنتاج، والرأسمال الثقافي المتصل بالشهرة العلمية، لكن ذلك التعارض قد يعبر عن نفسه بأشكال مُتباينة فهل يكون أشد أو أقل جلاء؟ وهل السلطة الأكاديمية المجردة من الأساس العلمي في قدرتها على الديمومة أهم في فرنسا أم في الولايات المتحدة؟ وحدها دراسة كاملة سوف تستطيع أن تعطينا الإجابة، فبحثاً من ذلك النوع سوف يستطيع كذلك أن يجيب تجريبياً عن المسألة المثارة دورياً، من طرف علم الاجتماع الأمريكي عن النظام الجامعي الفرنسي، ومن طرف الاستخدامات الفرنسية للنموذج الأمريكي باعتباره وسيلة لنقد النظام الفرنسي، إنه سيمكننا من أن نعرف إذا ما كان النظام الأمريكي الذي يقدم نفسه كأنه أقدر على المنافسة وأفضل من حيث سيادة التقدير، هو الملائم أكثر من النظام الفرنسي للاستقلال العلمي إزاء القوى الاجتماعية، إنها مسألة من الأهمية بمكان في آن واحد على المستويين العلمي والسياسي.

(2) تصوره عن المجتمع الشيوعي (الماركسية المزيفة):

قد يتبين لنا من ملامح تحليلات بورديو، استخدامه لتعبيرات مختلفة ترتبط بالمراكسية: رأس المال، الطبقة، إعادة الإنتاج، التحويل...الخ، بل ولقد اعتاد بعض النقاد وصف أعمال بورديو باعتبارها ماركسية، إلا أن بورديو رفض بعناد وصف نفسه بالماركسي، غير أنه يشترك مع ماركس في التركيز على الواقع العملي الملموس، باعتباره نقطة البداية لأي فهم للعالم، وهو يعترف مثله مثل ماركس بأن كل الحياة الاجتماعية عملية بصورة أساسية، وكل عناصر الغموض التي تدفع بالنظرية نحو التعمية تجد حلها العقلي في الناحية العملية، وفي فهم هذه الناحية العملية.

ولنبدأ على سبيل التذكير لا للتعريف بالأسس الثلاثة الجوهرية التي تؤسس الفكر الماركسي الكلاسيكي: المستوى الاقتصادي، المستوى السياسي– القانوني، والمستوى الرمزي.

حيث يحدد المستوى الأوَّل عند الماركسية كلاً من المستويين الثاني والثالث، مُشددة بقوة على أولوية البنية التحتية بالنسبة للبنى الفوقية، وإن تاريخ البشرية حتى أيامنا هذه، هو تاريخ الصراع بين الطبقات، الذي تحدده العلاقات الاجتماعية الناجمة عن القوى الإنتاجية [31].

إن سوسيولوجيا بيير بورديو النقدية للموقف الماركسي بصفة خاصة والمجتمع الماركسي الشيوعي بصفة عامة، تنطلق من فكرة مؤداها: عدم قدرة النموذج الماركسي على توفير أسس سليمة تقوم عليها المجتمعات الإنسانية، وفشله في تفسير طبيعة العلاقات الاجتماعية القائمة بين الأفراد، نظراً لأن هذا النموذج ركز وحدة اهتمام تفسيره على المادية التاريخية فقط، واعتبر أن المحور الذي تدور حوله كل الصراعات والتناقضات البشرية هو العامل الاقتصادي، متناسياً أهمية دور بقية العوامل الأخرى الثقافية والاجتماعية والسياسية والطبيعية، إضافة إلى أن الماركسية لم تلبي طموح الأغلبية من أفراد المجتمع خصوصاً المضطهدين من الطبقة العاملة، والتي من أجلها على حسب رؤى ماركس سيقوم المجتمع الشيوعي، مجتمع العدالة الاجتماعية.

ولعل فشل تطبيق النظريات الماركسية, قد بدأ مع زوال الحكومات الشيوعية في الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية، ومع افتقار الشيوعية لمصداقيتها بشكل عام، وعلى الرغم إن عدداً من النقاد الماركسيين لم يؤمنوا بالبتة بالمذهب الشيوعي، أو أنهم كانوا إيجابيين نحو الأنظمة الشيوعية المتنوعة في أوروبا

(ISSN : 2536 - 9555)

الشرقية والاتحاد السوفيتي، فهؤلاء النقاد يستخدمون الماركسية بوصفها منظور ليهاجموا من خلاله ما يرونه جوانب سلبية فاسدة في المجتمعات البرجوازية الغربية، فربما تكون الماركسية قد سجلت فشلاً على الصعيدين الاقتصادي والسياسي، إلا أنها لازالت تجذب عديداً من نقاد الثقافة والمدارس الأخرى، الذين يستخدمون مفاهيمها ليهاجموا انعدام المساواة في المجتمعات الرأسمالية وأحياناً في بعض المجتمعات الاشتراكية[32].

لهذا شغل اليسار الجديد اهتمامه بالكفاح لتحرير ذاته من القيود المزدوجة لسياسات اليسار القديم (كما تظهر في الأحزاب الشيوعية التقليدية والماركسية والأرثوذكسية) من جهة، والقوى القمعية لرأسمالية الشركات والمؤسسات البيروقراطية (الدولة، الجامعات، النقابات..الخ)، من جهة أخرى، بحيث نظر اليسار الجديد لنفسه كقوة ثقافة وقوة سياسية– اقتصادية في آن واحد، إلا أن خط السلوك هذا قاد إلى نتائج عدة غير مقصودة، لقد أدى ذلك إلى الاندفاع نحو سياسات ثقافية تتصل بالتحررية أكثر من اتصالها بالتقليد الماركسي، كما أسهمت في وضع اليسار الجديد في موقع معاداة الطبقة العاملة ومواقفها ومؤسساتها[33].

فقد غدا اليسار الجديد في قبضة الحركات الاجتماعية التي كانت هي نفسها من عوامل تمزق سياسات اليسار القديم، حيث تتواصل بعض أقسام اليسار سعياً للبحث عن علم اجتماع جديد, ملائم للواقع الاجتماعي الجديد الذي يمارسون حياتهم فيه إلى حد كبير، من خلال محاولة إعادة تركيز الماركسية في ماركس الذي اهتم بظاهرة الاغتراب وهو الاهتمام الذي شكل أكثر المراحل عداء للمذهب النفعي في حياة ماركس، وأياً كانت طبيعة الشكل الذي اتخذه في النهاية، تبدو احتمالية أن يتأثر علم اجتماع اليسار الجديد بالطبيعة الجديدة للثقافة النفعية التي يجد اليسار الجديد نفسه الآن في إطارها، وبذلك سوف تبقى النفعية تشكل أحد

أسس الانتقال إلى علم اجتماع راديكالي جديد، بينما سوف تشكل الأخلاق الأساس الآخر، ومثلما وجدنا أن الماركسية الكلاسيكية قد تأثرت بصورة معقدة بواسطة المذهب المنفعي القديم، فإنه يبدو من المؤكد غالباً أن علم الاجتماع الراديكالي الجديد سوف يتأثر بها كذلك، ولكن بعد إجراء جميع التغيرات الضرورية بواسطة المذهب النفعي الجديد، وبرغم النقد النظري الذي وجهه ماركس لنفعية (بنتام) إلا إن الماركسية تتضمن أيضاً بناءً كامناً من العواطف التي تلائم في جانب منها ثقافة المذهب النفعي, ولذلك فقد تشعر كل من البراجوازية التقليدية والماركسية التقليدية أنهما يقتربان بشدة من بعضهما البعض على مستوى أبنية العواطف أكثر من اقترابهما من الاتجاه الراديكالي الجديد(34).

هذا ويقدم لنا راؤول مارك جينار Raoul Marc Jennar في كتابه: أوربا: خيانة النخب Europe La Tranison des elites عام2004م, طرحاً نقدياً لإشكالية المجتمعات الاشتراكية في أوربا، مُستشهداً في العديد من المواقع بمقولات بيير بورديو عن طبيعة المجتمع الشيوعي الاشتراكي قائلاً: "إن أوروبا تقول ما تفعله، ولا تفعل ما تقوله... أوربا التي يتم بناؤها هي خداع وسراب... فالنخب الاشتراكية التي كانت وراء البناء الأوروبي، إنما تقوم بخيانة الوعود التي طرحتها لشعوبها، وإن هذا البناء لا يخدم المصلحة العامة للأوربيين بقدر ما يخدم الأوساط المالية ومجموعات رجال الأعمال الصناعية والتجارية"(35).

فبالمقارنة بين البواعث والأهداف التي أعلنت، وبين الوقائع الملموسة التي تمت في البناء الأوروبي، هذا المنهج العملي الذي يعني الانتقال من الاندماج الاقتصادي إلى الاندماج المالي فإلى الاندماج السياسي والاجتماعي، إنما وُضع بيد مجموعات تكنوقراطية تستعبد الفكرة الأوروبية باتجاه تآكل الممارسة الديمقراطية وتقييدها، بل والسير في إنها الضمانات الاجتماعية للأوروبيين،

(ISSN : 2536 - 9555)

فالنخب التكنوقراطية تعمل وحبلها على غاربها مسؤولة بذلك أمام المواطنين الذين لم يصوتوا عليها ولا يستطيعون ممارسة رقابة ديمقراطية في وجهها، وتشكل "المفوضية الأوروبية" مواقع هذه النخب الأساسية التي تتمتع بصلاحيات هذه المفوضية في امتلاك حق الاقتراح والمبادرة وطرح جدول الأعمال وتنفيذ مقررات مجلس الاتحاد الأوروبي مستفيدة في الوقت نفسه من تناقضات الحكومات الأوروبية الممثلة في هذا المجلس والخلافات القائمة فيما بينها، ونقص كفاءاتها إزاء الملفات المعقدة والدقيقة المقدمة إليها.

باختصار فإن السلطة التكنوقراطية للمفوضية الأوروبية هي التي تفرض نفسها عملياً في دعوى البناء الأوروبي، ولعل في هذا القول إشارة واضحة إلى ما قاله بيير بورديو في: "إن الاشتراكية الديمقراطية التي اعتنقت الليبرالية لا تريد أوروبا اجتماعية، وإن الأحزاب السياسية الحاكمة يميناً ويساراً تتخلى عما هو سياسي لمصلحة السوق الحرة، بينما تتجه النقابات الأوروبية نحو المساواة مع هذه السوق، ولا تريد شيئاً آخر غير تلطيف السيطرة الليبرالية الجديدة... إن النخب التكنوقراطية والسياسية والاقتصادية تخون الفكرة والشعوب الأوروبية, لأن الاتحاد الأوروبي ليس للمواطنين الأوروبيين، بقدر ما إنه يخدم الطبقة الليبرالية الجديدة التي تقوم بمد سلطتها ونفوها إلى العالم... إن قوة الليبرالية الجديدة تجعلها تطبق نفسها في أوروبا على الأقل من خلال أشخاص يسمون أنفسهم اشتراكيين، يتحدثون عن الاشتراكية وهم ينفذون برامج الليبرالية الجديدة، ولذلك أصبح من العسير للغاية تقديم نقد يتجه إلى يسار هؤلاء الديمقراطيين الاشتراكيين، ففي فرنسا قامت حركات الاضرابات في 1995م، والتي عبئت جماهير عريضة من العمال والمتعطلين، بالإضافة إلى المثقفين، ثم نشبت سلسلة كاملة من الحركات، حركة المتعطلين والزحف الأوروبي للعاطلين، وحركة المهاجرين دون أوراق رسمية

وغيرها... كان هناك نوع من الاضطرابات المستمرة، مما أجبر الديمقراطيين الاشتراكيين الموجودين في السلطة على الأقل إلى التظاهر بتبني الخطاب الاشتراكي، ولكن في الممارسة الفعلية لا تزال محاولات تقديم نقد يساري ضعيفة، ويرجع السبب في هذا إلى طرحها على المستوى الوطني، وفي رأيي أن من أهم قضايا السياسة، كيف نتخذ موقفاً إلى يسار الحكومات الديمقراطية الاشتراكية القائمة على المستوى العالمي، موقفاً يمكن أن يؤثر بالفعل في هذه الحكومات"[36].

وفي مقالة أخرى تحت عنوان: من أجل اليسار, شن بورديو هجوماً على حكومة جوسبان، التي كانت ائتلافاً من الاشتراكيين والشيوعيين والخضر (أنصار البيئة) في عام 1997م، وكانت المقالة التي كتبت في أعقاب التحالف الذي نشأ في الانتخابات المحلية بين الجبهة الوطنية وفصائل من اليمين التقليدي, ممتلئة بالغضب إزاء الزيادة الواضحة في تأثير الفاشية في المجتمع الفرنسي وخاصة داخل المؤسسة السياسية، كما أدانت المقالة زيف تحالف اليسار الذي خيب أمل ناخبيه، دفع من اشتد خنقه إلى أقصى اليسار"[37].

إن الموقف النقدي لبييربورديو، يكمن في تصوره بأن المجتمع الشيوعي وإن كان قائماً في شكل دولة التكنوقراط، إلا أنه لم يستطيع أن يحقق الأهداف التي قام من أجلها، ونادى بها أنصاره من اليسار الجديد، فلقد خيبت الشيوعية آمال العديد من مُعتنقيها في أوروبا، عندما اتجهت إلى خدمة نخبة من أفراد المجتمع الشيوعي، وتناست الصالح العام أمام محاولاتها المتكررة إلى فرض سيطرتها ونفوذها على العالم في شكل رأسمالية ليبرالية جديدة، مُتسترة بستار الماركسية والشيوعية المتحررة.

(ISSN : 2536 - 9555)

ولعل هذا الموقف يضع بورديو في تقابل واضح مع فكرة (هابرماس) في عمق حركة التباعد التي مارستها مدرسة فرانكفورت حيال النظرية الماركسية، حيث عبر هابرماس في كتابه: ما بعد ماركس, عن إرادته في تحرير أفكاره الخاصة من الإطارات الأساسية للأورثودوكسيا الماركسية، وكذلك هربرت ماركوز Herbert marcuseo عندما ذهب قائلاً: "إن نمو الاحتكارات وزيادة تدخل الدولة على المستويين القومي والدولي، أدى إلى السيطرة على حياة البشر بطرق أكثر تعقيداً...، فلقد أصبح التناقض واضحاً بين مستوى حياة الناس الفعلي وبين المستوى الذي يمكن أن يعيشهُ هؤلاء في ظل ثروة المجتمع الهائلة... وحتى الطبقة العاملة أصبحت غير قادرة على قيادة عملية التغير، نظراً لأن نسق النظام استطاع أن يشتري ولاءها، أو يستوعبها في إطاره، ويهيمن على الناس ويستغلهم ويخدعهم من أجل ضمان تجدده واستمراره"[38].

(3) تصوره عن المجتمع الرأسمالي الجديد (الليبرالية):

إن ما يحدث من إطلاق قُوى السوق لجهة تحكمها في مختلف الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية، وسعي القوى المسيطرة على عمليات العولمة إلى الضغط من أجل فتح الحدود أمام تدفقات السلع والخدمات ورؤوس الأموال، مع تجاهل أهمية دور القيم الأخلاقية التي توجه هذه العمليات، أدى بالفعل إلى ازدياد الهوة بين الأغنياء والفقراء، كما أفضى إلى تصاعد الصراعات والنزاعات الاقتصادية، ومن الجدير بالذكر إن هذه العولمة العارية من آية قيود أخلاقية أو إنسانية، والتي تحكم فيها وتوجهها الرأسمالية المهيمنة على الاقتصاد العالمي، هي التي تخلق الفجوات المتنامية بين من يملكون ومن لا يملكون بما يؤدي إلى تعميق التصورات المشوهة والعدائية بين الثقافات والشعوب، كما إنها تُدعم من نزعات السيطرة العسكرية والسياسية والاقتصادية لدى القوى الرأسمالية المهيمنة.

فقد ظهر في العقدين الأخيرين في الولايات المتحدة وبريطانيا مذهب أيديولوجي سمي (بالليبرالية الجديدة)، ولعل أهم عنصر جديد في هذا المذهب، هو دعواه الأيديولوجية التي تبشر بنموذج جديد للدولة، تمارس السلطة فيه على أساس مبدأ (الكوفيرنانس Governance)(**) على غرار شركات المساهمة في النظام الرأسمالي ذي التقاليد الأنجلو ساكسونية(***).

إذن فنموذج الحكم الذي تبشر به (الليبرالية الجديدة) يهدف إلى تقليص دور الدولة، بحيث تكون مُهمتها القيام بالتسيير تحت توجيه ومراقبة أولئك الذين يوازي وضعهم إزاءها وضع حملة الأسهم بالنسبة للمديرين في الشركات الكبرى(39).

حيث يوحي خطاب دعاة العولمة الليبرالية، بأن هذه الأخيرة ستحول العالم إلى سوق عالمية واحدة، يجد كل واحد مكانه فيها، شريطة الانصياع اللامشروط لقوانين التنافس، مما سيجلب معه الخير لجميع المشاركين فيه، لكن رغم ما يحمله هذا الخطاب من وعود معسولة، نجده ينطوي على عدة تناقضات يمكن إبراز أهمها في إقبار مبادئ الديموقراطية، ففي سبيل تعظيم أرباحها تتجاهل الشركات متعددة الجنسية والأقليات المالية القوية، المسيطرة فعلياً على دينامية العولمة

(**) الكوفيرناس Governance: هي كلمة إنجليزية مشتقة من Govern التي تعني في أن واحد (الحكم) بمعنى ممارسة السلطة (الحكومية Government) والرقابة والتوجيه Control.

(***) الأنجلو ساكسونية: مملكة نظهرت في القرن السادس، ميزت العصر الذي ظهرت فيه، بعصر الأنجلو ساكسونية، وهذا المفهوم يشير في الأصل إلى علاقة علية اجتماعية، فهو يعبر عن الانتماء لبنية جزئية، يمكن أن نتوجس فيها نوعاً من التعسف والبنيات الفوقية، أما فيما يخص الأيديولوجياتن فهي محددة بواسطة الانتماء إلى كلية فرعية: طبقة أو ثقافة فرعية.

(ISSN : 2536 - 9555)

الليبرالية، ما تحدثه من تفاقم في حجم البطالة، ومن إلغاء لمكتسبات العمال والموظفين والطبقة الوسطى والشعوب، ومن تنكر لمصالح الأغلبية متوسطة ومحدودة الدخل، دون أن يكون لهؤلاء الخاسرين آليات فاعلة تسمح لهم بالدفاع عن مصالحهم، وإقبار الدور الإيجابي للدولة.

فالعولمة الليبرالية تتناقض مع الدولة، حيث تعمل الأولى دائبة على تفكيك الثانية دون أن توفر إطاراً عالمياً بديلاً من شأنه القيام بما كانت تقوم به الدولة في تسيير وضبط الرأسمالية، ولا يخفى على أحد أهمية الدور الذي كانت تقوم به الدولة في هذا المجال، فبالإضافة إلى الدور المحوري الذي لعبته في نشأة وحماية النظام الرأسمالي في مراحله الأولى، فإنها كانت تلعب دوراً هاماً في علاج الأزمات التي تعترض النظام الرأسمالي عبر مراحله المختلفة، إلا أن الدولة تتعرض حالياً من جانب الرأسمالية المعولمة، لعمليات إضعاف شديدة ومتعمدة، مما سيؤدي إلى صعوبات شديدة للرأسمالية في المستقبل، ويبدو واضحاً بأن العولمة الليبرالية قد تزامنت مع عمليات إثراء لم تشهد لها الرأسمالية مثيلاً من قبل، وكذلك عمليات إفقار شديدة للعمال وللطبقة الوسطى، تذكرنا بالمراحل الأولى لنشأت الرأسمالية، ويبدو أن هذا التناقض الذي يستفحل سنة بعد الأخرى سوف يخلق احتمالات قوية لإحياء كثير من أشكال الصراع الطبقي، وإعادة تكوين قوى اليسار والديموقراطية المناهضة لهذا الوجه اللاإنساني للرأسمالية المعولمة، والتي يصفها البعض بالليبرالية التوتاليتارية(****)، من خلال جنوحها إلى المواصفات

(****) الليبرالية التوتالتيارية: بنية أيديولوجية تمثل أرقى ما أفرزته الرأسمالية من سلطة سياسية واقتصادية وثقافية في زمن العولمة ظهر هذا المصطلح في الفلسفة الإيطالية عند (جيوفاني جنتيلي) في مبحثه: الأسس الفلسفية للفاشية 1924م، ليشير من خلاله

التوتالتيارية المتمثلة في: توتاليتارية الأسواق، توتاليتارية الليبرالية الجديدة، وتوتاليتارية تقنيات الإعلام الجديد، بل إنها كما يعبر عنها بيير بورديو (حكومية عالمية لا منظورة)، تنذر بمجيء نوع من الحتمية الاقتصادية لن تجدي أية مقاومة في منعها، فالقوانين الاقتصادية الجبرية تخفي وراءها سياسة محددة, هي العمل على إلغاء السياسة نفسها، إذ تعهد إلى القوى الاقتصادية بالهيمنة الإجبارية مع تحريرها من كل رقابة ومن كل قيد، وفي الوقت نفسه الحصول على خضوع الحكومات والناس لتلك القوى الاقتصادية والاجتماعية(40).

لقد كان بورديو دائماً منتمياً إلى اليسار، منذ انخراطه العملي بجانب التزامه الفكري في سنوات الخمسينيات والستينيات، وحتى تحوله الراديكالي في أوائل التسعينيات، عندما ركز بشكل رئيسي على نقد الليبرالية الجديدة ونتائجها الكارثية على الإنسانية، من خلال العمل البحثي الذي أشرف عليه بؤس العالم La Misère du monde عام 1993م والذي كان هدفه الرئيسي هو الكشف عن المعاناة الاجتماعية وأوضاع البؤس المتزايد الناتجة عن سياسة الليبرالية

إلى الدولة القومية تجسيداً لغائية سامية في مجال السياسة، والتاريخ العالمي، فالدولة عنده مستقية من فكرة (هيجل) بمثابة فرد فاعل في التاريخ.

لذلك فالدولة التوتالتيارية هي التي تبسط سيطرتها على الكيان المجتمعي كله، وكل مركز قوة يقع خارج سيطرتها فهو ملغي، وقد صاغ (بنيتوموسوليني)، هذه الفكرة في شعاره: كل شيء في الدولة، لا شيء خارج الدولة، لا شيء ضد الدولة، إلا أن بورديو عكس هذه الفكرة بقوله: أن التوتالتيارية لم تعد صفة للدولة بل صفة للاقتصاد، وإن التوتالتيارية الاقتصادية، بعكس التوتالتيارية السياسية، توتالتيارية لا منظورة، بحيث تبسط هيمنتها السرية على العالم بأسره من خلال الحكومة العالمية اللامنظورة: (البنك العالمي، صندوق النقد الدولي، البنك المركزي الأوروبي، الشركات المتعددة الجنسيات).

(ISSN : 2536 - 9555)

الجديدة، التي لم يكن المسئولون السياسيون بكل انتماءاتهم قادرين على إدراكها، بسبب صراعاتهم الداخلية، ولهتهم وراء البورصة والاستطلاعات.

حاول بورديو من خلال هذه الدراسة، أن يربط بين سياسية الليبرالية الجديدة، وبين زيادة الفساد ومعدل الجريمة، أو كما يطلق عليه دوركايم (الخلل أو الفوضي)، والانحراف عن النظام الطبيعي، ولعل هذا بدأ واضحاً في مجموعة منشوراته العلمية التي نشرت تحت عنوان: نيران مضادرة Contre Feux عام 1998م، وأعمال المقاومة Acts of Resistance عام 1998م، والرد على الهجوم Firing Back عام 2001م، ففي كتابه: نيران مضادة Contre Feux عام 1998م, نجد نقداً عميقاً لليبرالية الجديدة والدولة الفرنسية والسياسيين، مؤكداً على مفهوم المسؤولية الجماعية وعلى إيجاد تعريف جديد للمثقف ودوره السياسي، وتعريف جديد للفلسفة والفيلسوف، مدافعاً عن إمكان المثقف النقدي وضرورته، إذ ليس ثمة ديموقراطية حقيقية من غير سلطة نقدية – مضادة، وهو بذلك ينتقد المثقفين غير المسؤولين، والمثقفين المتعددي الموضوع والشكل، ويعتقد أن العالم سيربح كثيراً لو انتقل من منطق الحياة الفكرية إلى الحياة العامة، مُدافعاً عن الأجانب في فرنسا، وكاشفاً زيف العقلنة الغربية (حق احتكار العقل واحتكار العنف الشرعي)، ويدين الإمبريالية المحتلة، ويدعو إلى الانتهاء من تسلط (الخبراء) من نوع البنك الدولي أو صندوق النقد، وإلى القطيعة مع المعتقد الجديد أو الحتمية التاريخية التي يُعلِّمها منظِّرو الليبرالية، رافضاً البديل الجديد: إما ليبرالية وإما بربرية: "إننا نحتاج إلى القطيعة مع المعتقد الجديد أو الحتمية التاريخية التي يُعلِّمها منظرو الليبرالية، ورفض البديل الجديد: إما ليبرالية وإما بربرية... فالأغنياء يزدادون غنى، والفقراء يبقون أفقر"[41].

إن موقف بورديو الداعي إلى المقاومة أو الثورة على الليبرالية الرأسمالية الجديدة, قد لعب بدون شك دوراً أساسياً في بلورة الأفكار والشعارات التي تحملها الحركات المناهضة للعولمة, ففي مقال نشر في (اللوموند ديبلوماتيك) عدد مارس 1998م، يحلل بورديو الدور الذي تقوم به الهيئات المالية الدولية مثل صندوق النقد FMI، والبنك الدولي ومنظمة التعاون والتنمية OCDe في فرض برامج اقتصادية تتمثل في خفض تكاليف الأيدي العاملة، خفض الاتفاق العام وما تطلق عليه مرونة العمل، وهو ما يجعله يقول بأن: "الليبرالية الجديدة تتحول بهذا الشكل إلى برنامج سياسي يستند إلى نظرية اقتصادية، هذه النظرية عبارة عن لعبة من ألعاب الخيال الرياضي المستند في الأصل على درجة عالية من التجريد، يكفي بهذا الصدد التفكير في كيفية رؤية هذه النظرية إلى التعليم الذي لم تعتبره على الإطلاق إلا سلعة مثل بقية السلع، تنظر إليه من منظور اقتصادي بحت مبني على التنافس، وهو ما يناهض المنطق الاجتماعي المستند إلى مبدأ العدالة"[42].

إن النظرية النيوليبرالية، كما يحللها بورديو نظرية مفرغة من البعد الاجتماعي وخالية من البعد التاريخي، فالخطاب السائد في سياسات الليبرالية الجديدة، هو خطاب يشبه ذلك السائد في مصحات الأمراض العقلية، إنه خطاب قوي وهو ليس قوياً، إلا لأنه يهيمن على كل القوى في عالم تحكمه علاقات قوى تفرض عليه أن يكون بالشكل الذي هو عليه، إن هذه النظرية تستند إلى برامج تعمل على التدمير المنهجي لكل ما هو جماعي وإنساني، ويستمد البرنامج الليبرالي قوته الاجتماعية من القوة السياسية/ الاقتصادية، لهؤلاء الذين يعبر عن مصالحهم من المساهمين في البورصات، والمضاربين والعاملين في سوق المال، ورجال الصناعة، ورجال السياسة، والمحافظين أو الاشتراكيين الديمقراطيين الذين

(ISSN : 2536 - 9555)

تحولوا إلى تبني مبدأ (دعه يعمل دعه يمر) مع فارق أنهم من كبار الموظفين المتشدقين بالشعارات السياسية المفرغة عملياً من أي مضمون.

فمّما لا شك فيه أن المواجهات الإيديولوجية التي كانت سائدة طوال فترة الحرب الباردة، قد انتهت بصورتها القديمة، أي المواجهة وجهاً لوجه، وسيادة الخطاب الإيديولوجي المباشر، لكن التحول الجديد الذي طرأ خلال السنوات العشر الأخيرة على وجه الخصوص، هو انفراد ما يمكن أن نسميه بالإيديولوجيا الناعمة، بموقع الصدارة في وسائل الإعلام المختلفة، والتي تتمثل في تلك الجرعات اليومية التي تبثها وسائل الإعلام الحديثة، وكذلك الوسائط المتعددة Multimedia، وانتشار الإنترنت على المستوى العالمي.[43]

هذا ويحذر بورديو من فكرة تسليمنا بالأيديولوجية الرأسمالية الجديدة قائلاً: "إن النيوليبرالية تقدم نفسها كأنها أمر حتمي، إنها جملة من المقتضيات التي فُرضت على سبيل البداهة، إننا نسلم بأن النمو الأقصى، وإذن الإنتاجية والتنافسية هو الهدف الأسمى الوحيد للنشاط الإنساني، ولا يمكننا مقاومة القوى الاقتصادية أو الاقتضاءات المؤسسة لكل المتطلبات الاقتصادية أيضاً حيث أحدثت قطيعة جذرية بين الاقتصادي والاجتماعي، مع التهميش والتخلي عن علماء الاجتماع... ثمة مقتضيات أخرى مهمة، ألا وهو المعجم المشترك الذي يخترقنا ونمتصه بمجرد أن نقوم بفتح صحيفة أو نستمع إلى الراديو، والذي وضعت عباراته في صورة مهذبة، ففي فرنسا مثلاً لم نعد نقول: رب العمل، بل نقول: القوى الوطنية الحية، إننا لا نتحدث عن الطرد من العمل، بل نتحدث عن إزالة الذهن مستعملين تعبيراً رياضياً مثيله: (على الجسم القوي أن يكون رشيقاً)، ولكي نعلن أن إحدى الشركات سوف تقوم بطرد ألفين شخص من العمل، فإننا نتحدث عن الخطة

الاجتماعية الـAlcatel ثمة لعب كامل على التباس واشتراك العبارات، نظير مرونة وانعدام الضبط، وهو ما يهدف إلى الإقناع بأن الرسالة النيوليبرالية هي رسالة كونية للتحرر، يبدو لي أنه من الضروري حماية النفس ضد هذا الرأي الشائع، عبر إخضاعه إلى التحليل، ومحاولة فهم الميكانيزمات التي تم بواسطتها إنتاجه وفرضه، لكن هذا لا يكفي وإن كان مهماً وبالإمكان مواجهته بعدد من الإثباتات التجريبية"[44].

لكن ما الذي يمكن عمله تجاه الأخطار التي تفرضها سياسات الليبرالية الجديدة، والتي تهدد مستقبل العالم كله؟ يدعو بورديو بشكل خاص إلى خلق أدوات يمكنها أن تقف ضد التأثيرات الرمزية التي يمارسها (الخبراء) الذين يعملون في المؤسسات الدولية ولدى الشركات المتعددة الجنسيات، مثلاً يكفي قراءة التقرير الأخير لمنظمة التجارة العالمية OMC فيما يتعلق بالخدمات، حتى نعرف أي سياسة للتعليم ستفرض علينا خلال السنوات الخمس القادمة، إن وزارات التعليم لن تفعل غير تطبيق التعليمات التي تم إعدادها من قبل خبراء قانونيين، علماء اجتماع وخبراء في الاقتصاد، والتي سيتم نشرها بمجرد الانتهاء من وضع اللمسات القانونية لها، لهذا يدعو بورديو إلى تشجيع شروط إنشاء وإقامة الهيئات والجمعيات التي تساهم في تشجيع الإنتاج الجماعي للاكتشافات والاختراعات, وتعمل على إنجاح ذلك من خلال رؤية سياسية, ذلك لإن الجمعيات والهيئات التي لعبت دوراً في إحداث تغيرات عميقة في تاريخ الإنسانية، كانت تتكون من أناس عاديين لم ينتظروا تعليمات من أحد ليقوموا بمبادرتهم، كالجمعية التأسيسية التي سبقت الثورة الفرنسية في عام 1789م، وجمعية فلادلفيا في أمريكا كانتا تتكونان من أناس عاديين يساندهم خبراء قانونيين ولديهم بعض الأفكار التي وجدوها لدى مونتسيكو ومفكرين آخرين، وهم الذين أنشأوا هيئات ديمقراطية بعد

(ISSN : 2536 - 9555)

ذلك، حيث يعتقد بورديو في وجودها فرصة معقولة للنجاح، ومؤشر ذلك تلك الحركات المتزايدة من مظاهرات واحتجاجات، فالكارثة المحدقة بالعالم لا تزال في بدايتها، والحركة الاجتماعية الفعالة على المستوى الأوروبي، يجب أن تضم ثلاثة مكونات أساسية: النقابات، العمل الاجتماعي والباحثين، بشرط أن ينخرط الجميع داخل هذه الحركة، ويطالب بورديو الحركات الاجتماعية بأن تلجأ إلى الأعمال الرمزية ذات الكفاءة التي تعتمد على الالتزام الشخصي والمادي للمشاركين فيها، بل يمكن لهذه الحركات أن تقوم ببعض الأعمال الرمزية مُتحملة في ذلك بعض المخاطر، مثل الاعتصامات واحتلال بعض المواقع الرمزية[45].

إن الرؤية البورديوزية المناهضة للرأسمالية الجديدة، شبيهة بتلك الرؤى التي يحملها كلاً من كارل ماركس وماكس فيبر تجاه الرأسمالية، بل إننا لو تتبعنا سياق التطور النقدي للرأسمالية عبر تاريخ الفكر، لوجدناه انعكاس لتطور نقد الواقع عند الفلاسفة اليونانيين، حيث كان الفلاسفة ينقدون بطريقتهم عن طريق بناء (يوتوبيا) تعكس قلب الوضع الاجتماعي الناقص، كما هو الحال في جمهورية أفلاطون، فلقد كان لأفلاطون رؤية للاجتماع شبيهة بتلك التي يحملها تكنوقراطيونا مع الفلاسفة والحراس وأيضاً الشعب.

فالواقع الاجتماعي منذ الأزل قائم على التباين والتناقض بين من يملك ومن لا يملك رأس المال، سواءٌ أكان رأس المال هذا سلطة سياسية أو ثروة اقتصادية أو ثروة رمزية ثقافية، إلا إن اختلاف المسمى عبر تطور المجتمعات يضعنا أمام مفارقة واضحة بين الليبرالية الجديدة والليبرالية التقليدية القديمة، فكارل ماركس ينظر للرأسمالية من خلال استغلال أقلية مهيمنة على رأس المال المادي، فارضة أيديولوجيتها المحافظة على مجتمع يعيش واقع طبقي منقسم إلى فئتين:

فئة برجوازية مالكة لرأس المال وأخرى بورليتارية فاقده له، أما ماكس فيبر فيقدم لنا في كتابه: روح الرأسمالية، نقداً واضحاً للمجتمع الرأسمالي قائلاً فيه "لقد أصبح الربح هو الغاية التي يصبو إليها الإنسان، فهو لم يعد تماماً للإنسان كوسيلة وأداة لتحقيق حاجاته المادية، إن هذا القلب لما نسميه بالحالة الطبيعية للأشياء، والذي هو شيء عبثي من وجهة نظر ساذجة هو بكل جلاء إحدى الحوافز المميزة للرأسمالية، ويبقى شيئاً غريباً عن كل الشعوب التي لم تستنشق هواءها"(46).

فلقد كان بورديو حاضراً ومُستحضراً في آراءه، للعديد من المقولات الفكرية التي اشتملت عليها حركة التطور النقدي للرأسمالية، مُستنتجاً من خلال تتبعه لهذه الحركة، أن الثورة النيوليبرالية المحافظة تأخذ اليوم نمطاً جديداً يتذرع بالتقدم والعلم، لكي تبرر الاسترجاع، وهكذا تحاول أن تبعث في الأسلوب القديم الفكرة والحركة التقدميين، إنها تشكل بمقاييس كل الممارسات وبالقوانين المثالية، الانتظامات الواقعية للعالم الاقتصادي المهجور، قانون السوق المعروف، أي قانون الأقوى، فهي تقر وتمجد سيادة ما يسمى الأسواق المالية، أي العودة إلى نوع من الرأسمالية الراديكالية دون قانون آخر غير الربح الأقصى، أي رأسمالية بلا تصنع، لكنها معقلنة، ومدفوعة إلى أقصى فعاليتها الاقتصادية عبر إدخال أنواع السيطرة الحديثة، مثل إدارة الأعمال وتقنيات الإدارة والتجارة والإعلان التجاري، فإذا استطاعت هذه الثورة المحافظة أن تخدعنا، فذلك لأنها لا تحمل شيئاً يدل عليها في واجهتها، ولكي نواجه أسطورة العولمة الرأسمالية التي تنحصر وظيفتها في إقناعنا بقبول عملية استرجاع نمط ما، والعودة إلى الرأسمالية المعلنة، يتعين بنا الرجوع إلى الواقع الاجتماعي، وتتبع تاريخ تطور هذا الواقع.

الخلاصـــة:

(ISSN : 2536 - 9555)

1) إن المقاربة المنهجية المقدمة من قبل بورديو بين علم الاجتماع والفلسفة، والتفرقة بينهما تجد خلفياتها العلمية في المدرسة الأبستمولوجية الفرنسية.

2) انتماء بورديو إلى جيل ما بعد البنيوية، الذي أحدث القطيعة مع الوجودية السارترية، وتحوله إلى الأبستمولوجيا وفلسفة المصطلح والعلوم الإنسانية.

3) إن تحليل بورديو للأنطولوجيا السياسية عند مارتن هيدجر، يعكس لنا مسارين اتخذهم في تجربته مع الفلسفة: الأول، نقده لهذه الفلسفة في منظور سوسيولوجي. والثاني، ارتباطه بهذه الفلسفة في فكره الاجتماعي.

4) يرى بورديو أن مهمة عالم الاجتماع تختلف عن التقني الاجتماعي الذي يتعامل مع البحث مثل المهندس حسب الطلب، لأنها تقوم على نزع الصفة الطبيعية والصفة الجبرية عن العالم الاجتماعي، أي تدمير الأساطير التي تستر ممارسة السلطة وتخلد السيطرة، وتُعري العالم الاجتماعي، بحيث لا تكون هذه التعرية بقصد إقصاء الآخرين، بل على العكس من ذلك، يجب أن يهتم بجعل السلوكيات ضرورية وغير اعتباطية.

إذن فموضوع علم الاجتماع عند بورديو يكمن في دراسة العالم الاجتماعي ومدى فهمنا لطبيعة هذا العالم والعلاقات والنظم الاجتماعية السائدة في فضائه.

5) تفرد بورديو في نظرته إلى الفضاء الاجتماعي، الذي يرى أن السوسيولوجيين أنفسهم يسهمون في صنعه، بالرغم من أنهم يدّعون أنهم يدرسونه ويصفونه فقط، فالواقع الاجتماعي هو موضوع للإدراك، ولابد للعلم الاجتماعي من أن يجعل موضوعه كلاً من هذا الواقع وإدراك هذا الواقع، ووجهات النظر التي لدى الفاعلين عن هذا الواقع، بفضل موقعهم في

الفضاء الاجتماعي الموضوعي، فالرؤى العفوية للعالم الاجتماعي، أو ما يسمى (السوسيولوجيا العفوية)، كلها تشكل جزءًا من الواقع الاجتماعي.

6) إن محاولة بورديو في تقديم صورة عن المجتمع الأكاديمي المصغر (الجامعة) في كتابه: الإنسان الأكاديمي، يعكس خصوصية تاريخية للحالة الفرنسية التي ينفرد بها الحقل الأكاديمي من خصائص بنائية تجعل منه ميداناً ملائماً بشكل كبير لاكتشاف بعض القوانين الكلية التي تنظم نزوعياً اشتغال كل الحقول.

7) إن سوسيولوجيا بيير بورديو النقدية للموقف الماركسي بصفة خاصة والمجتمع الماركسي الشيوعي بصفة عامة، تنطلق من فكرة مؤداها: عدم قدرة النموذج الماركسي على توفير أسس سليمة تقوم عليها المجتمعات الإنسانية، وفشله في تفسير طبيعة العلاقات الاجتماعية القائمة بين الأفراد، نظراً لأن هذا النموذج ركز وحدة اهتمام تفسيره على المادية التاريخية فقط، واعتبر أن المحور الذي تدور حوله كل الصراعات والتناقضات البشرية هو العامل الاقتصادي، متناسياً أهمية دور بقية العوامل الأخرى الثقافية والاجتماعية والسياسية والطبيعية، إضافة إلى أن الماركسية لم تلبي طموح الأغلبية من أفراد المجتمع خصوصاً المضطهدين من الطبقة العاملة، والتي من أجلها على حسب رؤى ماركس سيقوم المجتمع الشيوعي، مجتمع العدالة الاجتماعية.

8) إن الموقف النقدي لبييربورديو، يكمن في تصوره بأن المجتمع الشيوعي وإن كان قائماً في شكل دولة التكنوقراط، إلا أنه لم يستطيع أن يحقق الأهداف التي قام من أجلها، ونادى بها أنصاره من اليسار الجديد، فلقد خيبت

(ISSN : 2536 - 9555)

الشيوعية آمال العديد من مُعتنقيها في أوروبا، عندما اتجهت إلى خدمة نخبة من أفراد المجتمع الشيوعي، وتناست الصالح العام أمام محاولاتها المتكررة إلى فرض سيطرتها ونفوذها على العالم في شكل رأسمالية ليبرالية جديدة، مُتسترة بستار الماركسية والشيوعية المتحررة.

9) حاول بورديو من خلال العمل البحثي الذي أشرف عليه (بؤس العالم) أن يربط بين سياسية الليبرالية الجديدة، وبين زيادة الفساد ومعدل الجريمة، أو كما يطلق عليه دوركايم (الخلل أو الفوضي)، والانحراف عن النظام الطبيعي، ولعل هذا بدأ واضحاً في مجموعة منشوراته العلمية التي نشرت تحت عنوان: نيران مضادرة Contre Feux عام 1998م، وأعمال المقاومة Acts of Resistance عام 1998م، والرد على الهجوم Firing Back عام 2001م، ففي كتابه: نيران مضادة Contre Feux عام 1998م, نجد نقداً عميقاً لليبرالية الجديدة والدولة الفرنسية والسياسيين، مؤكداً – أي بورديو– على مفهوم المسؤولية الجماعية وعلى إيجاد تعريف جديد للمثقف ودوره السياسي، وتعريف جديد للفلسفة والفيلسوف، مدافعاً عن إمكان المثقف النقدي وضرورته، إذ ليس ثمة ديموقراطية حقيقية من غير سلطة نقدية– مضادة.

10) إن النظرية النيوليبرالية، كما يحللها بورديو نظرية مفرغة من البعد الاجتماعي وخالية من البعد التاريخي، فالخطاب السائد في سياسات الليبرالية الجديدة، هو خطاب يشبه ذلك السائد في مصحات الأمراض العقلية، إنه خطاب قوي وهو ليس قوياً، إلا لأنه يهيمن على كل القوى في عالم تحكمه علاقات قوى تفرض عليه أن يكون بالشكل الذي هو عليه، إن هذه النظرية تستند إلى برامج تعمل على التدمير المنهجي لكل ما هو

جماعي وإنساني، ويستمد البرنامج الليبرالي قوته الاجتماعية من القوة السياسية/ الاقتصادية، لهؤلاء الذين يعبر عن مصالحهم من المساهمين في البورصات، والمضاربين والعاملين في سوق المال، ورجال الصناعة، ورجال السياسة، والمحافظين أو الاشتراكيين الديمقراطيين الذين تحولوا إلى تبني مبدأ (دعه يعمل دعه يمر) مع فارق أنهم من كبار الموظفين المتشدقين بالشعارات السياسية المفرغة عملياً من أي مضمون.

المراجـــع

(1) بيير بورديو، بعبارة أخرى: محاولات باتجاه سوسيولوجيا انعكاسية، ترجمة أحمد حسان، دار ميرت للنشر والمعلومات، القاهرة، الطبعة الأولى ، 2002، ص ص 23-27.

(2) Craig Calhoun, Loc wacquant, In Memoriam Pierre Bourdieu (1930-2002), http://en.wikipedia,org/wiki/pierre.bourdieu, p.9.

(3) بيير بورديو، الأنطولوجيا السياسية عند مارتن هيدجر، ترجمة: سعيد العلمى, المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة, الطبعة الأولى، 2005, ص 34.

(4) نفس المرجع السابق, ص49.

(5) نفس المرجع السابق, ص15.

(6) نفس المرجع السابق, ص ص 17-18.

(7) نفس المرجع السابق, ص ص 138- 139.

(8) الياس صنبر، وفاروق مردم بك، وكاترين ليفي، حوار مع عالم الاجتماع والإناسة بيار بورديو، ترجمة: حسن الشامى, مجلة الدراسات الفلسطينية الفصلية، باريس, 2000, ص ص 5-6.

(9) بيير بورديو, بين كارل ماركس وماكس فيبر, حوار مع بيير بورديو، الفكر العربي المعاصر، عدد 37، 1985، ص 68.

(ISSN : 2536 - 9555)

(10) لـوي ألتوسـير، الفلسـفة وفلسـفة العلمـاء العفويـة، ترجمـة: رضـا الـزواري, دار نشـر العيون، المغرب, الطبعة الثانية،1989, ص ص 31، 33، 39.

(11) بيير بورديو، بين كارل ماركس وماكس فيبر، مرجع سابق، ص ص 65-66.

(12) Pierre Bourdieu, Chose dites, (Paris: Editions de Minuit, 1987).Op.. pp. 11-13.

(13) بيير بورديو، بين كارل ماركس وماكس فيبر، مرجع سابق، ص ص 33، 67-68.

(14) عبـد الـرحمن بـن خلـدون، مقدمـة ابـن خلـدون، تحقيـق: درويـش الجويدى,المكتبـة العصرية، بيروت, 2003, ص 47.

(15) جراهام كينلوش، نظريـة علم الاجتمـاع: نماذجها الرئيسية وتطورها، ترجمـة: فاديـة عمر الجولانى, المكتبة العربية، 2001, ص 89.

(16) علـى ليلـة، البنائيـة الوظيفيـة فـي علـم الاجتمـاع: الـرواد، المكتبـة المصـرية للطبـع والنشر والتوزيع، الإسكندرية، الطبعة الثانية، 2003، ص ص 172-175.

(17) عبـد الله محمـد عبـد الـرحمن، النظريـة فـى علـم الاجتمـاع، الجـزء الأول: النظريـة الكلاسيكية, دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية, 2005, ص ص 388-390.

(16) Max Weber, The Theory of Social and Economic Organization (Free Press, 1964) p. 88.

(17) Pierre Bourdieu, Chose dites, op.cit. pp. 124-126.

(18) بيير بورديو، ج.د.فاكون، أسئلة علم الاجتمـاع:فى علم الاجتمـاع الانعكاسى،ترجمة: عبدا لجليل الكور، مراجعة: محمد بودودو، دار توبقال للنشر، المغرب، الطبعة الأولـى، 1997، ص ص12-13.

(19) نفس المرجع السابق, ص ص 18-19.

(18) Pierre Bourdieu, Jean-Claude Passeron, Les Héritiers: les étudiants et la culture (Paris :Éditions de Minuit) pp. 45-50.

(20) Ibid. pp. 50-55

(21) بيير بورديو، بعبارة أخرى: محاولات باتجاه سوسيولوجيا انعكاسية، مرجع سابق، ص ص 91-98.

(22) نفس المرجع السابق, ص ص 336-337.

(23) بيار أنصار، العلوم الاجتماعية المعاصرة، ترجمة: نخلة فريفر، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1992, ص 41.

(19) Pierre Bourdieu, Homo Academicus. Cambridge: Polity (USA: Stanford University Press, 1984) p. 52.

(20) Ibid. p. 23.

(21) Pierre Bourdieu, La Distinction: Critique sociale du jugement, (Paris: Edition Minuit, 1979), pp. 112-125.

(24) بيير بورديو، ج.د. فاكون، أسئلة علم الاجتماع: فى علم الاجتماع الانعكاسى، مرجع سابق. ص ص 133-134.

(25) حسن مصدق، يورغن هابرماس ومدرسة فرانكفورت: النظرية النقدية التواصلية, المركز الثقافي العربي، المغرب, الطبعة الأولى، 2005, ص 46.

(26) أرثر أيزابرجر، النقد الاجتماعي: تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية, ترجمة: وفاء إبراهيم ورمضان بسطاوي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2002، ص ص 116-117.

(27) ديفيد هارفى، حالة ما بعد الحداثة: بحث فى أصول التغيير الثقافى، ترجمة: محمد شيا, مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت, الطبعة الأولى، 2005, ص ص 405-406.

(28) ألفن جولدنر، الأزمة القادمة لعلم الاجتماع العربي، ترجمة: علي ليله، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2004, ص ص 602-606.

(22) Raoul Marc Jennar, Europe: La Transition des élites (Paris: Fayard, 2004) p.282.

(23) Jim Wolfreys, In Perspective: Pierre Bourdieu, International Socialism Journal, Issue 87. 2000, pp 3-4.36

(24) Ibid. p. 5.

(ISSN : 2536 - 9555)

(25) Herbert Marcuse. “A Study on Authority” in Studies in Critical Philosophy, trans. Joris de Bres (London: NLB, 1972) p. 130.

(29) محمـــــــد عابـــــــد الجـــــــابرى، أوهـــــــام الليبراليـــــــة الجديـــــــدة, http://aljabri,150m.com/libralisme.html. 2006.

(30) عبد السلام أديب، تناقضات العولمة الليبرالية, الرباط،2000.
http://www.albadil.net/articles/neolibralism/contradictions.html.

(26) Pierre Bourdieu, Contre-feux (Paris : Liber-raisons d’agir, 1998) p. 102.

(31) بيير بورديو، أسطورة العولمة والدولة الاجتماعية الأوروبية، ترجمة: إدريس هانى، مجلة الكلمة, مجلة فصلية تعنى بشؤون الفكر الإسلامى وقضايا العصر، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، العدد 43، 2004.

(32) درويش الحلوجى، نقد الليبرالية الجديدة, مجلة أدب ونقد, القاهرة, العدد 217، 2003، ص ص 105، 107، 110-113.

(33) بيير بورديو، أسطورة العولمة والدولة الاجتماعية الأوروبية، مرجع سابق.

(34) على سالم، بيار بورديو: السوسيولوجي الخائب، كاشف زيف العقلية الغربية، مجلة معابر ، سوريا، 2002، إصدارات خاصة 7 ، ص ص 9-10. (http:// Maabder 50megs.com).

(27) Max Weber, Éthique protestante et esprit du capitalisme, 1976. p.45.